الباب الأول

﴿من قمة إلى قمة﴾

"أفضل الناس مؤمن مزهد"

obeikandl.com

نشأ أحمد بن حنبل يتيمًا تكلؤه أيم شبابه، خلفها أبوه وحيده غير ذات مال، بعد رحلة بعيدة الشقة، طويًا فيها نصف أسيا، يلتمسان السلامة وصلاح البال بين أصولهما من بني شيبان بالعراق، وكانوا في الثروة والذروة من إمارات الدولة ومجد يبدئ فيه الشعراء ويعيدون مشيدين ببلائهم في الحروب وغنائهم في الدفاع عن الدولة ومكانتهم في العرب.

وأنفقت الأم على ابنها سنوات حياتها بسخاء، ولكن بإحسان، فأرضعته مع لبانها أجل خلائق المسلم – خليقة الورع. وهي جماع الحياء والرحمة والزهد والصبر والشجاعة. وأتاحت له فرص العلم الذي سبق فيه قرناءه.

فلما بلغ عهد الدراسة العالية أدار ظهره إلى جاه الدنيا، وولى وجهه شطر أعظم حلق العصر، فتلمذ لأبي يوسف صاحب أبي حنيفة، ثم انطلق إلى مصادر العلم في أقطار العالم الإسلامي كافة، مع الإضافة والفاقة. ثم أجاءه القدر في جوار البيت العتيق إلى حيث حلقة محمد بن إدريس الشافعي، فطفقا يعكفان على العلم بضعة عشر عامًا بمكة وبغداد حتى فصل الشافعي من جزيرة العرب إلى فسطاط مصر، فشهد أنه لم يخلف بالعراق رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وفي حلقة الشافعي وضع أحمد قدمه في طريقه إلى القمة ليصير عندها إمام المسلمين الرابع.

والنشأة، وبنو شيبان، والأم العظيمة، والخلق العظيم.

والتلمذة وصحبة الشافعي حتى الأربعين.

وعصر الإسراف والبذخ المتلاف – عصر الرشيد وبنيه– أو عصر بن حنبل.

هذه – على الترتيب – مواضيع البحث في الفصلين التاليين.

obeikandi.com

الفصل الأول

﴿زاهد في المجد﴾

١٦٤ هـ - ١٨٢ هـ

"كنت أرى أحمد بن حنبل يحيى

الليل وهو غلام"

إبراهيم بن شباس

- بنو شيبان
- بيت العلم في شيبان
- صفية بنت شيبان
- غلام يتورع

obeikandl.com

فصل القائد الصغير محمد بن حنبل بن هلال عن مرو الشاهجان عاصمة خراسان سنة ١٦٣ للهجرة قاصدًا عاصمة الخلافة، ومعه زوجه، يحدوهما الأمل في المستقبل، وتؤردهما مشاق الارتحال والحمل، حتى إذا ألقيا عصار التيار في دار السلام نزلا بين أهليهم – بني شيبان – وكانوا في الذروة والثروة من السيادة في الجاهلية، إلى الصدارة في الإسلام، إلى الإمارة في دولة بني العباس.

وكانت أحاديث الناس في الأعوام الأخيرة حافلة بانتصارات أبطالهم على أعداء الخلافة.

فلعل القائد الشاب قد خلف خراسان إذ لم تتح له فرص المجد التي تتاح لبني شيبان في العراق، أو لعله كان يعتصره الهم إذ لم تعد خراسان مثابة للعرب وآمنًا، ولم تعد مرو قاعدة الغزو الذي يوجهه العرب إلى وسط أسيا.. فلقد غير الزمان وجهه.. وأصبح العرب يُغزون من مرو الشاهجان وخراسان، ولم يعد الفرس يطيبون أنفسًا بالعرب، ولا العرب يطيبون أنفسًا في بلاد الفرس! وغدا القائد الشاب وزوجه، كسائر العرب هنالك، نبت بهم مضاجعهم في مهاجرهم، وأرقهم التحنان إل منابتهم في جزيرة العرب، وأمسوا يهتفون مع الشاعر العربي هتافه الحزين بالقمارى:

أقمريــة الــوادي التــي خــان إلفهــا مــن الــدهر أحــداث لهــا وخطــوب
تعـــالي أطارحـــك الغـــرام فإننـــا كلانــا "بمــرو الشــاهجان" غريــب[٢]

والتاريخ يذكر أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس قال للدعاة الذي وجههم لنشر الدعوى لآل البيت بخراسان في قاتحة القرن: "... ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، هناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل... وبعد فإنني أتفاءل إلى المشرق...".

(٢) مرور الشاهجان، عاصمة خراسان، ومرو الروز تقع في الجنوب منها. ويطلق المؤرخون عليهما المروين. وكانت حدود خراسان مما يلي العراق إلى ما يلي حدود الهند.

openkanal.com

وفي سنة ١٢٥ مات محمد بعد أن عهد بالإمامة لابنه إبراهيم، وازداد إبراهيم ميلاً إلى أهل خراسان فكتب إلى أبي مسلم الخراساني يقول: "... واقتل من شككت فيه، وإن استطعت ألا تبقى في خراسان من يتكلم العربية فافعل..." ووقع الخطاب في يد الخليفة مروان بن محمد فقبض على إبراهيم وقتله، وكان قد أوصى قبل مقتله إلى أخيه أبي العباس "السفاح".

وفي سنة ١٢٨ اشتعلت الثورة بخراسان – وانجفل الناس على أبي مسلم من "مرو" وسرخس وهراة فتوافدوا جميعًا مسودي الثياب، كشعار الدعاة لبني العباس [٣]. وفي العام التالي قاد أبو مسلم الثورة وجيوشها إلى وقائع حاسمة حولت الدعوة الدينية إلى دولة عالمية في سنة ١٣٢، وسرقت الدولة بتمامها من فرع علي بن أبي طالب.

ولما آلت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور مادت الأرض تحت أقدام أبي مسلم، فراقبه وغاضبه، ثم نبذ عهده، وسفك دمه، وظل كفه طوال حكمه خضيبًا بدمه ودم المطالبين بدمه.

وأوجس أهل خراسان خفية، واستيقن الفرس عامة أن المد الذي تتابع ارتفاعه قد أخذ في الانحسار، فطووا أضالعهم على الضغن والغضب، يتفجر في الانتفاضات المدمرة او يتفقأ كالسخط الدفين في الشعور، أو يتخلق في أشكال شتى من هوشات وفتن محلية أو معتقدات دينية، كلها زندقة من ديانات الفرس، تمارسها أقليات نشطة في خفاء، فتتجارى مع الشعوبية في كراهة العرب، ومنها جماعات قدست فريد بن ماه فروزين وأخرى قدست أبا مسلم وبنته فاطمة.

وشرب خلفاء بني العباس منهم الكأس حتى الثمالة واحدًا إثر واحد وعانى أبو جعفر منهم أيامًا عصيبة..

ففي سنة ١٣٨هـ قتلت جيوشه شنباذ الخارج بنيسابور مطالبًا بدم أبي مسلم، وفي سنة ١٤١ هم الراوندية بقتله فلم ينج إلا بأعجوبة من بني شيبان.

---

(٣) اتخذ بنو العباس السواد شعارًا لدعوتهم لأن النبي ﷺ دخل مكة معتمًا بعمامة سوداء ومعه ابن عمه الفضل بن العباس رديفًا له – والعباس جد الأسرة العباسية – وفي شهر رمضان سنة ١٢٩ نشر العلم الأسود على خراسان.

وفي سنة ١٤٥ خرج "أستاذيس" يدعي النبوة في جموع حاشدة من أهل خراسان فقتل جيش أبي جعفر منهم سبعين ألفًا وأسر منهم بضعة عشر ألفًا، وسالت أنحاء خراسان بالدم، واستقبل الخراسانيون خلافة المهدي بخروج المقنع الخراساني من أعمال "مرو" سنة ١٦١ مدعيًا النبوة، ولما أحاطت به جيوش الخليفة شرب السم وسقاه نساءه فماتوا سنة ١٦٣. وهو العام الذي وصل فيه محمد بن حنبل بأهله من مرو. وازداد غليان المرجل بعد عام لتخرج المحمرة بجرحان فتتغلب عليها ويسير المهدي إليها جندًا من طبرستان، ويتفاقم الخطر على خلافة الرشيد فتتعدد خرجاته بالجند إلى خراسان، وهو نفسه من مواليد الري بفارس، وفي طوس بفارس سيموت وهو يقود الجيوش لمحاربة رافع بن الليث واليه على سمرقند إذ خرج عليه.

وفي عصر الرشيد خرج بابك الخرمي يدعي الألوهية – وطالت حروبه مع أبناء الرشيد حتى قتل.

ولما ولي الأمين بعده قلب الزمان ظهر المجن – فإذا جند خراسان تغزو العراق من جديد لتحل محل الخليفة العربي الأب والأم خليفة أمه من خراسان يتخذ "مرو" قاعدة له، ويعيد التاريخ نفسه، فما هي إلا نفثات صراع دفين كصوت الأنين يعلو ويهبط، بين الفرس الذين يريدون أن يستعيدوا مجدهم، والعرب الذين تأذن شمسهم بأفول..

وفي ضباب هذا الاضطراب كان نجم "بني شيبان" يزداد علوًا في آفاق الدولة وميادين المعارك من اليمن إلى خراسان. فمعن بن زائدة في اليمن وسجستان، ويزيد ابن مزيد في المشرق كله، وآخرون يجرون على آثارهم أو يتزعمون الخوارج.

وستصحب أسماء أبطالهم أسماء ثمانية من الخلفاء. منهم ثلاثة من أعلام التاريخ العالمي، هم المنصور والرشيد والمأمون، ومنهم اثنان من عظماء التاريخ الإسلامي، هما المهدي والمعتصم، وثلاثة من مشاهير بني العباس هم الأمين والواثق والمتوكل، فلبنى شيبان مع كل خليفة من هؤلاء قائد عظيم يستعان به أو ثائر عظيم يستعاذ منه.

* * *

ولعل القائد الصغير محمد بن حنبل كان يعالج في دخيلة نفسه أحاسيس تتخالج في صدره، فتوسوس له بدنو أجله وحاجة زوجه وحملها، إلى أهله وأهلها، تضعه بين ظهرانيهم، وإن كان ثمة قدر متيقن من الأسباب هو أن السماء أرادت أن تمن على بغداد، ليولد فيها رابع الأئمة.

حملته أمه وهنًا على وهن، وفصلت به بين عاصمتين، لتقدمه هدية إلى الوجود في ربيع الأول سنة ١٦٤ (٧٨٠م).

ثم رحل القائد العائد رحلته الأخيرة عن الدنيا في الثلاثين من العمر فلم يره طفله، كما لم ير الطفل جده لوفاته. وإنما ترعرع بين أعمام له.

وكان تجييش الجيوش الإسلامية يجري على نظام عمر بن الخطاب منذ عشر الجنود فصاروا عشرات عشرات، وقسمهم كتائب وبنودًا، على كل عشرة رجال عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير.

وقل تأثير القائد في حياة الفتى وبرز فيها أثر أمه، كما برز جده، ولم يبرز أبوه في اسمه، فصيره الجمهور أحمد بن حنبل.

وكان حنبل بن هلال [٤] واليًا على سرخس، وهو إقليم ذو شأن في أقاليم خراسان. وسرخس قصبة الإقليم بلد قديم، قيل إنه بنى قبل غزو ذي القرنين لهذه البلاد، وإنه هو الذي أتم بناءه، ومنه توافد الناس للانخراط في الجيوش التي أقامت دولة بني العباس.

---

(٤) والتاريخ يذكر أن حنبل بن هلال كان من أبناء الدعوة، وأن المسبب بن زهير الضبي ببخارى ضربه وأبا النجم إسحق بن عيسى السعدي في دسهما على الجند في الشغب وحلفهما.

وكان المسيب بن زهير بن عمر الضبى (١٧٥) ولبنيه مكان في دولة بني العباس، فالعباسيون يروون عنه حديثًا يرويه عن أبي جعفر المنصور عن أبيه عن جده، ابن عباس، عن الرسول، صلى الله عليه وسلم. أنه قال: "العباسي عمي ووصيي ووارثي" وقد ولى شرطة بغداد في أيام المنصور وكان ينتقل في حراسته. فهو يرى بين يدي المنصور في زيارته للمدينة ويرى مرة أخرى بالمدينة في حراسة المهدي عندما دخل مسجد الرسول فقام الناس إعظامًا لأمير المؤمنين إلا محمد بن أبي ذئب. فقال المسيب – قم فهذا أمير المؤمنين فأجابه "إنما يقوم الناس لرب العالمين" قال المهدي: دعه فقد قامت كل شعرة في رأسي.

بنو شيبان:

كان المثنى بن حارثة الشيباني على رأس المنضمين من قبائل البحرين إلى لواء العلاء الحضرمي أحد الألوية التي سيرها أبو بكر لقتال المرتدين في العام الحادي عشر للهجرة، وتابع المثنى المسير بقواته على شاطئ الخليج العربي حتى بلغ مجمع البحرين في مصب الفرات ليسلم المسلمين مفاتيح الإمبراطورية الفارسية.

وفوجئ الخليفة بالصنيع وصانعه، فحدثه عنه قيس بن عاصم المنقري الذي يقول فيه الرسول: "هذا سيد أهل الوبر" وكان من الزعماء المنضمين للعلاء – قال: هذا رجل غير خامل للذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثني بن حارثة للشيباني [٥].

وأقبل المثنى إلى المدينة ببشريات النصر واطمأن أبو بكر منه إلى أن الفتح داني القطوف فأمره ليتابع ما بدأه. وولي خالد بن الوليد القيادة العامة فبلغ العراق على رأس عشرة آلاف قدم بهم على ثمانية آلاف مع قواد المسلمين، وقاد الجيش الثاني عدي ابن حاتم الطائي صاحب الرسول عليه الصلاة والسلام، وسار خالد بجيش ثالث في المؤخرة فهزموا الفرس في موقعة "ذات السلاسل" وانطلق المثنى يطارد فلول الفرس وخلف أخاه المعنى على حصار أميرة فارسية في (حصن المرأة) فاستسلمت وأسلمت وتزوجت منه.

ثم أمر الخليفة خالدًا أن يخف لنصرة جند الشام بنصف جيوشه وأن يستخلف المثنى في نصف الناس، فاستأثر لنفسه بكل الصحابة فقال المثنى: "والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف وكيف تعريني منهم؟ ووالله ما أرجو النصر إلا بهم؟" فأرضاه وأعاضه منهم أبطالاً مجربين.

لم يكد خالد يفصل بجنوده حتى خرج المثني للقاء الفرس وعلى ميمنته وميسرته أخواه: المعنى ومسعود. وتواقع الجيشان وفى الفرس فيل يعيا في مصاولته المغاوير. فبرز إليه المثنى في جماعة فأردوه قتيلاً والتأمت الصفوف الإسلامية وولى الفرس الإدبار إلى أبواب "المدائن"

وتخللت هذه المدة تولية المسيب إمارة خراسان سنة ١٦٦ هـ "ثم صرفه عنها بالفضل بن سليمان الطوسي لاضطراب البلاد عليه.

(٥) كان ديار بني شيبان على تخوم العراق أيام خاضعًا للفرس. وكانوا يحتلون وقعة كبيرة من جزيرة العرب من اليمامة إلى البحرين على سيف (شاطئ) كاظمة إلى البحر فأطراف العراق والأبلة فهيت.

obeikandl.com

عاصمة كسرى، وكتب المثنى إلى الصديق يخبره بنصر الله ويستمده لفتح المدائن، وطار انتظاره فسارع إلى أمير المؤمنين فإذا هو يودع الدنيا – فدعا خليفة اليوم خليفة الغد يقول له "... إني أرجو أن أموت من يومي هذا فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى.. وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق".

وبايع الناس عمر – فندبهم للقتال فاثاقلوا. فخطبهم المثنى: "أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه، فإننا قد تبحبحنا ريف فارس، وغلبنا على خير شقى السواد وشاطرناهم، ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها".

ورأى عمر حسن أثره في الناس فأتبعه بقوله: "... إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين الطراء المهاجرون عن موعد الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال: "لِيُظْهِرَهُ على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره، ومول أهله مواريث الأمم.. أين عباد الله الصالحون؟".

وأمر عمر على الجيش أبا عبيد عمرو بن مسعود الصحابي إذ كان أول منتدب. ولم يكن يتقدم على الصحابة أحد.

واستشهد أبو عبدي في موقعة "الجسر". وأصابت الرماح المثنى بجراح، وتراجع المسلمون والفرس على آثارهم، فكر المثنى عليهم كرة صادقة فأسر قائديهم "مردانشاه" و "جابان" حتى إذا واتته أمداد عمر نهض للقاء العدو في معركة "البويب" ويسمى يومها يوم الأعشار؛ لأن مائة من فرسان العرب قتل كل منهم عشرة من الفرس، وقتل من الفرس مائة ألف، واستشهد مسعود، ومنها انطلق المثنى حتى أصبح على مرأى من العاصمة "المدائن" ثم نغرت عليه جراح المعارك فاستشهد.

وبقى المعنى وحده على قيد الحياة ليوفده سعد بن أبي وقاص مع المغيرة بن شعبة والأشعث بن قيس وعمرو بن معد يكرب والنعمان بن مقرن وفرات بن حبان إلى كسرى يزدجرد قبل المعركة الفاصلة: معركة القادسية [٦].

---

(٦) تمثلت في هذا الوفد عزة العرب بالإسلام فهم اليوم جحافل غازية تقف على مشارف عاصمة كسرى التي تدخلها بعد قليل في حين كان وفد آخر، من سنوات قليلات، فيه زعيم آخر من شيبان، يدافع عن كرامة

ولئن كتب النصر وتصفية الإمبراطورية الفارسية في القادسية سنة ١٥ لسعد بن أبي وقاص بعد إذ أمره عمر، أو مات المثنى قبل المعركة قبل قليل من لقاء سعد، إن بطولاته لم ينسها أحد. ولم تغب عن القائد. فلقد تزوج سعد من زوجة المثنى سلمى بنت أبي حفصة إكرامًا لها، وكانت إلى جوار سعد تمرضه إذا أصابته الحمى، تقول ورحى المعركة تدور "وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم" وهي التي أطلقت أبا محجن الثقفي ليحارب على البلقاء فرس سعد حربه التي شبه فيها بملك كريم.

* * *

وكما يقترن تاريخ العراق بأمجاد بني شيبان يقترن بهم تاريخ بني العباس، والمدينة التي تمثل في التاريخ دولتهم.

كانت بغداد في أيام العجم قرية يجتمع فيها التجار رأس كل سنة فتقوم فيها سوق عظيمة، فلما فتح المثنى السواد بالعراق ذكر له أنه يجتمع فيها من أموال الناس مثل خراج العراق! وبينها وبين مدائن كسرى عامة يوم.. فخرج إليها ومعه أدلاء الحيرة والأنبار. فصبح الناس في الأسواق وأخذ من الأموال الذهب والفضة، ومن المتاع ما يقدر الرجال على حمله على دوابهم، فملأ المسلمون أيديهم من البيضاء والصفراء ثم عادوا إلى معسكراتهم.

ولولا بطل من بني شيبان لما نجا من الموت المحقق المؤسس الحقيقي للدولة وللعاصمة التي تحمل اسمه: مدينة المنصور، بغداد.

ففي سنة ١٣٢ كان على رأس جيوش خراسان قحطبة بن شيب في مواجهة أهل الشام وعلى رأسهم يزيد بن هبيرة، وتساير الجيشان على جانبي الفرات فعبر قحطبة مخاضة في النهر يستعجل النصر – وكان معن بن زائدة من قواد نصر بن سيار أمير المشرق، وانقطع ليزيد بن

العرب، في بلاط كسرى. قال قيس بن مسعود الشيباني: "لم تقدم أيها الملك لمساماة ولم ننتسب لمعاداة. ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أننا في المنطق غير محجمين.." قال كسرى: "غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين..." وهو يعرض بترك الوفاة بضمانة أرض العراق. قال قيس: "أيها الملك ما كنت في ذلك غلا كوف غدر به أو كخافر خفر بذمته.." قال كسرى: "ما يكون لضعيف ضمان وما يكون لذليل خفارة" قال قيس: "أيها الملك ما أنا فيما خفر من ذمتي أحق بإلزامي العار منك فيما قتل من رعيتك وانتهك من حرمتك..." قال كسرى: (ذلك لأن أئتمن الخانة واستنجد الأئمة ناله من الخطأ ما نالني).

هبيرة قائد أهل الشام. فضرب معن قحطبة على حبل عاتقه فسقط قتيلاً في الماء. ومع ذلك انهزم ابن هبيرة بجيوش الشام، ثم خندق عند واسط حيث حاصره العدو.

وكان الإشراف على حصار واسط أعظم أعمال أبي جعفر الحربية في خلافة أخيه السفاح. فجزاه عليه ولاية الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، فلما انتهى الحصار بعد أحد عشر شهرًا، بأمان من أبي جعفر ليزيد بين هبيرة، غدر الخليفة السفاح به فقتله وقتل أبطال جيش الشام فلم ينج منهم إلا معن بن زائدة بالهرب (٧)، فظل طلبةً للمنصور سنوات طويلات، وأغلى المنصور الجائزة لمن يرشد إليه لمكانته وأحاديث فروسيته وجوده.

ولما ثار الرواندية سنة ١٤١ وأخرجوا من السجون بالعاصمة مائتين منهم حبسهم المنصور، وأحاط بقصره منهم ستمائة فخرج بنفسه يحاربهم فأحدقوا به وكادوا يقتلوه.. لولا أن قيضت السماء فارسًا ملثمًا ظهر ثم ترجل وانتضى سيفه وقتل أربعة كانوا يحاولون قتل الخليفة: ثم هجم على "الربيع" حاجبه ولجام بغلته بيده فقال له: تنح فإني أحق باللجام منك في هذا الوقت وأعظم غناء. قال المنصور للربيع: صدق فادفعه إليه. ولم يزل الفارس يقاتله دون الخليفة، حتى انكشفت للغاشية وحمل حرس المنصور على الثوار، وتنادى الناس فأفنوهم عن آخرهم، ومنذئذ قرر المنصور أن يبني عاصمة جديدة فيها أمان له، فبنيت بغداد.

قال الخليفة: من أنت لله أبوك؟ قال – وأماط لثامه – طلبتك يا أمير المؤمنين، معن بن زائدة. قال أبو جعفر وقد أذهله إقدام معن على الجود بروحه من أجل عدو يطلب رأسه، فصارت

---

(٧) ويرى مروان بن أبي حفصة شاعر الخلافة العباسية: حدث معن وهو باليمن أنه اضطر لشدة الطلب أن قام في الشمس حتى لوحت وجهه وخفف عارضيه ولحيته ولبس جبة صوف غليظة قال: "وتبعني يومًا رجل أسود متقلدًا سيفًا حتى إذا غبت عن الحرس قبض على زمام جملي وقال: "أنت معن.. وأنا أعرف بك منك.. قلت هذا عقد جوهر حملته معي يفي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بي. خذه ولا تسفك دمي قال هاته.. فنظر إليه ثم قال صدقت في قيمته ولست قابله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك: إن الناس وصفوك بالجود فأخبرني – هل وهبت قط مالك كله؟ قلت لا قال: فنصفه؟ قلت لا قال: فثلثه؟ قلت لا.. حتى بلغ العشر فاستحيت فقلت أظن أني فعلت هذا.. ما أراد فعلته.. أنا والله راجل. ورزقي من أبي جعفر عشرون درهمًا. وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس لتعلم أن في الدنيا أجود منك فلا تعجبك نفسك، وتستصغر بعد هذا كله شيء تفعله، فلا تتوقف عن مكرمة. ثم رمى العقد في حجري وانصرف. قل يا هذا قد والله فضحتني.. فخذ ما دفعته إليك فإني غني عنه. فضحك وقال أردت أن تكذبني في مقامي هذا. ومضى.. فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءني به ما يشاء. فكأن الأرض ابتلعته.

رأس هذا العدو تحت رحمته فأبقاها وقتل في سبيل بقائها أعداءها، ليصير بعد ذلك أسير صاحبها!.. "قد أمنك الله على نفسك ومالك فمثلك يصطنع".. واصطحبه.

وصار يسميه أسد الرجال، وولاه اليمن ليخضع الثورة فيها فأخضعها.

وذات يوم قال أبو جعفر لأسد الرجال: قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لغضب عليك.. إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك.

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفًا على شرف بنو شيبان

قال معن: إنما أعطيته لقوله في القصيدة:

ما زلت يوم الهاشمية معلنًا بالسيف دون خليفة الرحمن

والله لولا مخافة الشنعة لأمكنته من مفاتيح بيوت الأموال وأبحته إياها.

قال المنصور: لله درك من أعرابي، ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحرم[٨].

---

(٨) كان مروان بن أبي حفصة شاعر معن كمثل ما كان شاعر المهدي والرشيد. ومن قبل مروان منح الأخطل والفرزدق بني شيبان ومن بعده سيمدحهم أبو تمام وابن الرومي أمداحًا خالدة وكان المهدي يغاضب مروان من جراء شعره في معن. ولم يستقبله عامًا كاملاً، حتى إذا دخل عليه بين الشعراء وأنشده هائيته وفيها: إن تراثهم في آخر سورة الأنفال. زحف المهدي من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابًا بما سمع ثم قال: كم هي. قال مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم.

ويروي الهيثم بن عدي (٢٠٩) كنت في مجلس المهدي فأتاه مروان فقال له: يا فاسق: ألست القاتل في معن: جبل تلوذ به نزار كلها صعب الذرى متمتع الأركان. قال مروان: بل أنا الذي أقول فيك يا أمير المؤمنين

يا ابن الذي ورث محمدًا دون الأقارب من ذوي الأرحام

فرضى عنه وأجازه.

وابن الأعرابي يأبى أن يدون شعرًا لأحد من المحدثين بعد مروان وينشد، مع الإعجاب، بعض أبيات لامية له: ويقول: لو أن معنًا أعطى مروان كل ما يملك بهذه الأبيات لما بلغ حقه.

obeikandl.com

وكان حرص المنصور مضرب المثل – حتى ليسمى بالوانيقي من اهتمامه بالدانق.

وفي سبيل بني العباس جاد الجواد بروحه، استعمله المنصور على سجستان ليخمد ثورات الخوارج فقاد جيوش المنصور ولقى مصرعه على أيدي جماعة منهم اندسوا بين صناع يعملون في داره، فحمل اللواء ابن أخيه يزيد بن مزيد فانتصر.

ولما خرج يوسف البرم سنة ١٦٠ وجه إليه المهدي جيوش يزيد فأسر يوسف ومنّ عليه، وأرسله مع كرام أصحابه إلى الخليفة المهدي فقتلهم، ثم ولى الرشيد يزيد أرمينية ثم عزله عنها سنة ١٧٢ فلم يملأ مكانه إلا أخو الرشيد عبيد الله بن المهدي.

ولما قدم معن من اليمن دخل عليه مروان والمجلس غاص بالناس فأخذ بعضًا دنى الباب وأنشده قصيدته العينية التي يقول فيها:

نجيب منا جيب وسيد سادة ذرى المجد من فرعي نزار تفرعا

(يقصد أن بني شيبان يجتمعون بالنبي عليه السلام في نزار والعرب تقرعوا من أولاد نزار الأربعة مفسر جد الرسول – وربيعة جد بني شيبان – وإياد وأنمار)

فلما انتهى قال معن: احتكم قال عشرة آلاف قال معن: ربحنا تسعين ألفًا.. قال أقلني. قال معن: لا أقال الله من أقالك. وجمع مروان مائة وخمسين ألف درهم أودعها يزيد بن مزيد الشيباني.

لا يعبق الطيب كفيه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

قال يزيد: لا أدري يا أمير المؤمنين – قال الرشيد: فيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله! وذات يوم سأل يزيد حاجبه من بالباب؟ قال: مسلم بن الوليد (الملقب بصريع الفواني) منعته من الدخول عليك لما عرفته من إضافتك فأدخله وأنشده وقال يزيد لوكيله: بع ضيعتي الفلانية وأعطه نصف ثمنها وابق النصف لنفقتنا. فباعها بمائة ألف درهم وأعطى الوليد نصفها. وبلغ الخبر الرشيد فدعا يزيد وأمر له بمائتي ألف درهم – يسترجع الضيعة بمائة ألف ويهب الوليد خمسين ألفًا ويستبقي للنفقة خمسين ألفًا.

وجاء جيل ثالث، وفيه يروي أحمد بن يوسف كاتب المأمون أنه كان عنده، ومعه عبد الله بن طاهر فسأل الخليفة من أشعر من قال "لشعر في خلافة بني هاشم؟ قال عبد الله: أمير المؤمنين أعرف بهذا وأعلى عينًا.. قال... قال أشعرهم الذي يقول:

فيا قبر معن كنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة موضعًا

وولاه الرشيد اليمن، فلما كانت سنة ١٧٨ خرج على الرشيد شيباني آخر هو الوليد بن طريف وانتصر على جيوش الرشيد أكثر من مرة ثم عبر دجلة إلى حلوان سنة ١٧٩ وهدد الخلافة فندب له الرشيد يزيد.

ودارت رحى حرب ضروس بين أبطال شيبان في الجانبين، فكان الوزراء البرامكة يهمسون في أذن الرشيد بما يزعزع ثقته في القادة العرب. وابن الأثير يقول: "إن شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف" – وكان معن على خلاف مع البرامكة من قبل – فأرجفوا أن يزيد يتجافى عن الولدي لما بينهما من الرحم، واستغلظ أمر الوليد فاحتاج إلى مزيد من بطولات يزيد حتى كتب النصر ليزيد واتبع الوليد حتى قتل، وخلد القريض يزيد كما خلد عمه معنًا، ولم يكن الرشيد يحسده على المجد كما حسد معنًا أبو الرشيد وجده.

بل إن الشعر يقرن يزيد بالرشيد ويشبهه بخالد بن الوليد! قال سلم الخاسر:

إن لله في البرية سيفين يزيدًا وخالد بن الوليد
ذاك سيف النبي في سالف الد هر وهذا سيف الإمام الرشيد

وفي سنة ١٨٤ سير الرشيد أحمد بن هارون الشيباني إلى بلاد الروم فأغار عليهم وغنم وسلم، وفي سنة ١٩٠ بزغ في الأفق نجم جديد لبني شيبان هو شراحيل بن معن فافتتح حصون الصقالبة.

ولما مات يزيد صار ولداه أسد وأحمد ذراعين للأمين، إذ خلف الرشيد (١٩٣ – ١٩٨) وبرز إلى الوجود ما كان يتخالج في صدور الفرس والعرب من خلاف، فعول الأمين على العرب وعول المأمون على الفرس.

وطلب الأمين إلى أسد بن يزيد أن يقود الجيش العربي لمنازلة الفرس، واشترط أسد ألا يحاسب على ما يفتحه من المدن، وأن يعطي جنده عطاء سنتين، فأجابه الأمين إلى ما طلب، ولكن أسدًا أصر على أن يدفع إليه الأمين ولدي المأمون رهينة في يده حتى يعطي المأمون الطاعة. فصاح به: أنت أعرابي مجنون. أدعوك إلى ولاء أعنة العرب والعجم وأطعمك خراج كور الجبال إلى خراسان وأرفع منزلتك عن نظرائك أبناء القواد والملوك وتدعوني إلى قتل ولدي وسفك دماء أهل بيتي! إن هذا للخرق والتخليط، وحبسه. ثم دعاه أخاه أحمد لقيادة جيش جديد

من عشرين ألفًا وعززه بجيش آخر عشرين ألفًا، واختلف الجيشان ورجعا دون منازلة جند خراسان.

وقتل الأمين سنة ١٩٨ وقدم المأمون بغداد سنة ٢٠٤ فاستعمل خالد بن يزيد: وعمل خالد للمعتصم ومن شعر أبي تمام فيه بأرمينية:

تنفق في اليوم، بالهبات، وفي السا عة ما تجتنيه في سنتك

وظاهر من مواقف الخلفاء متعاقبين وأمداح الشعراء الخالدين لخالد ويزيد ومعن، مكان بني شيبان، وهم من أبناء عمومتهم – فروع بكر بن وائل – شعب كبير لا مجرد قبائل. يقول ابن الأثير في تاريخه: "... ليس في العرب أعز دارًا ولا أمنع جارًا ولا أكثر خلقًا من شيبان" [٩].

ولما انطلق المسلمون لفتح أسيا بعد اختطاط البصرة سنة ١٥ والكوفة سنة ١٧ كان المحاربون من بني شيبان في خيل عبد الله بن عامر والي العراق لعثمان ففتحت، انلمروين – مرو الروز ومرو الشاهجان – في خراسان، وفتحت فارس وكرمان، أما بخاري ففتحت سنة ٨٩ وسمرقند سنة ٩٣ وكشغر – عند حدود – الصين – سنة ٩٥:

ومع أن الكوفة، والبصرة، حيث استقر بنو شيبان، لم تبقيا عاصمتين للعراق لقيام بغداد واستقرار الخلافة فيها واستقدام العلماء والأدباء والشعراء والصناع والتجار إليها، فقد ظل نجم بني شيبان [١٠] يعلو في كل مكان وبخاصة في قوة العرب المقاتلة.

---

(٩) وليس ما تركنا ذكره من حروب بني شيبان أقل دلالة مثل خروج الضحاك بن قيس بجيش قوامه مائة ألف على مروان بن محمد، ثم خرج ملبد بن حرملة على المنصور فلم ينهزم إلا أمام جحافل لجب، وخروج خراشة الشيباني على الرشيد. كأنما كان الانتقاض والقتال حرفة بني شيبان.

(١٠) اختفى بالبصرة موسى بن عبد الله بن حسن – أخي محمد وإبراهيم – فأخذه أبو جعفر المنصور ثم عفا عنه، فكتب موسى إلى زوجته لتحضر إليه – وكانت أم سلمة بنت محمد بن طلحة بن ... بن ... أبي بكر الصديق (وأبو بكر الصديق من بني تميم) وأضاف شعرًا:

بيت العلم في شيبان:

تعهدت أحمد بن حنبل أمه، وكانت هي الأخرى شيبانيه صراحًا أبًا وأمًا واسمًا، جدها عبد الملك بن سوادة بن هند من وجوه بني شيبان بالبصرة – نزل به محمد بن حنبل فزوجه من "صفية" حفيدته من بنته ميمونة، ثم رحل الزوجان إلى خراسان حيث كان الزوج يرابط بمرو، ثم عاد بها حاملاً إلى بغداد، فأمست دارها مثابًا لأنحاء بني شيبان، وتعالم الناس أبناء قراها لأضيافها، سواء قدموا من البصرة أو من أنحاء البلاد التي ينتشر فيها بنو شيبان.

وسيقدم ابنها البصرة، يتلقى العلم، فيأتي مسجد بني مازن فيصلي فيه ويقول: هذا مسجد آبائي. فهو بصري الأصل، وإن كانت خطته ومقام أبيه بمرو، أو كان عمل جده في ولاية سرخس إحدى كور خراسان.

فلا تتركيني بالعراق فإنها بلاد بها أس الخيانة والغدر
فإني زعيم أن أجيء بضرة مقابلة الأجداد طيبة النشر
إذا أنتبن من آل شيبان في الذرى ومرة لم تحفل بفضل أبي بكر!

ولولا أنه قرشي، وسبط النبي، ولولا انها شيبان، لما قدر أن يقول... بل هذا شاعر آخر يقول:

وما الناس إلا معدنان فمعدن قريش وشيبان التي فرعت بكرا

وسنرى ابن الرومي بعد نحو قرن يجعل شيبان يفخر بوزير كما يفخر عدنان بالرسول عليه السلام، فيقول في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد سنة ٢٧٩ وكان ثمة من يستكثر على الوزير انتسابه إلى بني شيبان:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا، لعمري ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن له شرفًا كما علا برسول الله عدنان

وأفسد الحرص على النسب، أو الجهل بوجوه البيان، أو جزاء السماء على الغلواء، إدراك أبي الصقر فحسب ابن الرومي يهجوه في انتسابه بقوله "كلا" فكانت القطيعة فهجاه ابن الرومي عن قصد.

obeikandl.com

وهو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد.. بن مازن بن شيبان بن ذهل ابن ثعلبة بن عكابة بن بكر بن وائل.. بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

فذهل بن ثعلبة له ابن هو شيبان الجد الأعلى لأحمد بن حنبل وهو يجتمع بالنبي عليه السلام في نزار.

ولذهل أخ هو شيبان بن ثعلبة – ولشيبان هذا ابن هو ذهل الجد الأعلى للمثنى ابن حارثة.

ومع أن ذهل بن شيبان بن ثعلبة هو أبن أخ لذهل بن ثعلبة فهو يسمى بذهل الأكبر، لأن بنيه كانوا في الجاهلية أكثر نفيرًا وبطولات حروب – منهم جساس ابن مرة قاتل كليب، خالته البسوس، وبسبب استنفارها قبيلتها وقعت حرب البسوس ودامت أربعين عامًا في الجاهلية، ومنهم بسطام بن قيس فارس العرب في الجاهلية، وهانئ بن مسعود الذي أجار عيال النعمان بن المنذر من كسرى فوقعت وقعة ذي قار.. وعوف بن محلم الذي استعبد الناس بإحسانه وقيل فيه المثل:

"لا حر بوادي عوف"، ومنهم الحوافزن والمزدلف في الجاهلية ومنهم في الإسلام معن بن زائدة والضحاك بن قيس وشيب الخارجيان.

obeikandl.com

أما العلماء والمحدثون والخطباء والشعراء وأحمد بن حنبل فمن فرع شيبان بن ذهل[١١].

ومنه القعقاع بن سور والحارث بن وعلة – وكانا من أشراف العرب في الجاهلية.

ومنه الحصين بن المنذر بن الحارث بن وعلة – وقد جمع له أمير المؤمنين على رئاسة قبائل بكر كلها يوم صفين فكانت ألويتها تحت لوائه – فلم يغن أحد في المعركة إغناءه. قالوا أنشد فيه أمير المؤمنين على رضى الله عنه:

لمن رايةٍ سوداء يخفق ظلها إذا قيل قدمها حصين تقدما
يقدمها في الصف حتى يزيرها حياض المنايا تقطر السم والدما
جزى الله عني، والجزاء بكفه، ربيعة خيرًا. ما أعف وأكرما

ومنه دغفل بن حنظل النسابة المعروف – وقد صحب النبي – وكان من اعلم أهل زمانه بالنسب، وفي حديث لابن عباس عن أمير المؤمنين على أن دغفلا ناظر وهو غلام قد بقل وجهه أبا بكر في الأنساب إذ سأله أبو بكر عن نسبه، فأجابه ثم قال:

إن على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

---

(١١) والقرعان شريكان في فخار وقعة ذي قار: طلب كسرى (أبرويز) إلى بني شيبان شكة – سلاحًا – كان قد استودعها أبو قابوس النعمان ابن المنذر بني شيبان بن ثعلبة فرفضوا وأغار الحارث بن مالك من فرع ذهل بن ثعلبة على رودميسان، وأرسل إليهم كسرى جيوشه المرة بعد المرة، ولما تلاقوا عند ذي فار (٦١١) – ماء لبكر بن وائل بني عمومة شيبان – انكسر كسرى وولت جيوش الفرس الأدبار. وملأت أشعار الفخار دواوين العرب تمجيدًا لبكر وشيبان واشتهر بين الشعراء والقواد من بني شيبان عمرو بن ثعلبة واشتهرت أخته "صفية" بنت ثعلبة إذ كانت تحارب معه وتحرض بالقريض على الحرب.

وذهب عمرو بن ثعلبة إلى الرسول وبايعه ومات سنة ١ هجرية ودخل بنو شيبان في دين الله أفواجًا بعد بضع سنين للهجرة مجيبين لدعوى العلاء الحضرمي الذي بعث به الرسول إليهم.

وكانت وقعة ذي قار معاصرة لبعث الرسول، فكانت إرهاصًا من الزمان بمصير فارس إلى حكم العرب ودين الإسلام وفيها يروي قوله عليه الصلاة والسلام: إن هذا لأول يوم انتصف فيه العرب من العجم. وبي نصروا".

واشتد في جدله على أبي بكر، ولما روى أبو بكر المناظرة للرسول عليه السلام تبسم، وقال عليّ – وكان مع أبي بكر – لقد وقعت من الأعرابي على باقعة، قال: أجل. إن لكل طامة طامة "وإن البلاء موكل بالمنطق" فذهبت مثلاً.

ودخل دغفل على معاوية فعهد إليه في أن يعلم ابنه يزيد اللغة والأنساب والنجوم: ومات دغفل في الحرب بين الخوارج.

ومنه محارب بن دثار (١٢٢) حدث عن أم المؤمنين عائشة، وعن جابر ابن عبد الله صاحب الرسول عليه السلام. ويؤثر قوله عن ولاية القضاء: "لما أكرهت على القضاء بكيت وبكى عيالي ولما عزت من القضاء بكيت وبكى عيالي".

ومنه علماء اللغة والأدب النابهون في البصرة كمحمد بن حبيب.. ابن مازن ابن شيبان بن ذهل، وابنه أبي عثمان المازني بكر بن محمد بن حبيب (٢٤٨) ومؤرج بن عمر أبي فيد (١٩٥) النسابة الشهير وهو من أصحاب المأمون. قدم معه من خراسان إلى بغداد، وهو من قبل ذلك من أصحاب العربية العظماء ومن مشاهير أصحاب الخليل بن أحمد. ومؤرج وابن حبيب معاصران لأحمد بن حنبل.

* * *

ومنه عمران بن حطان.. بن سدوس بن شيبان بن ذهل.. من البصرة، وهو تابعي صندوق اشتهر بالعلم والحديث.. تزوج امرأة من الخوارج ليردها عن مذهبها فصيرته بمزاياها العظيمة خارجيًا، بل تزعم الخوارج.

كان فصيحًا قبيح الشكل في حين كانت فصيحة ذات جمال، دخل عليها يومًا وهي في زينتها فأعجبته وحدثتها نفسها بما في نفسه فقالت له: أبشر فإني وإياك في الجنة – قال: ومن أين علمت؟ فقالت: لأنك أعطيت مثلي فشكرت وأنا ابتليت بك فصبرت، والصابر والشاكر في الجنة.

روى عن أبي موسى الأشعري وحدث عن عائشة حديث القضاء: "كنت عند عائشة رضي الله عنها فتذاكروا القضاء فقالت عن رسول الله ﷺ (يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فلا يزال به ما يرى من شدة الحساب حتى يتمنى أنه لم يقض بين اثنين قط)".

طلبه الحجاج بن يوسف الثقفي فهرب – ولحق بالشام فنزل بروح بن زنباع [١٢] وكان أجل الناس في دولة عبد الملك بن مروان.

وعبد الملك من علماء المدينة المشهورين. قال له روح: يا أمير المؤمنين إن في أضيافنا رجلاً ما سمعت منك حديثًا قط إلا سمعته منه، وحدثه أحاديثه، قال الخليفة: هو عمران بن حطان، قال كيف عرفت؟ قال ذكرت لغة فزازية وصلاة وزهدًا ورواية وحفظًا– وهذه صفته، وطلبه عبد الملك فاختفى [١٣].

---

(١٢) كان روح بن زنباع زوجًا لهند بنت النعمان بن بشير الصحابي. والنعمان ابن أخت عبد الله بن رواحه، شاعر النبي والشهيد الثالث من قواد جيش مؤته بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، ومن بعده ولى القيادة خالد بن الوليد.. ولي النعمان القضاء لمعاونة بدمشق وهو الذي قدم الحجاج لعبد الملك بن مروان فجزى الحجاج صنيعه جزاء سنمار.

(١٣) شجر النزاع بين المهاجرين والأنصار ثم بايعوا أبا بكر مجتمعين واستخلف عمر واختار أصحاب الشورى عثمان فبايعه المسلمون ولما قتل بايع المسلمون عليًا – إلا كبراء بني أمية هربوا إلى العواصم – واستأذن طلحة والزبير في العمرة. فأذن لهما فشخصا إلى مكة والبصرة ومعهما عائشة أم المؤمنين. وجيشت الجيوش لنضال علي بالعراق، أما أهل الشام فطالبوه بقتله عثمان. وهزم أمير المؤمنين طلحة والزبير في موقعة الجمل سنة ٣٥ وفي العام التالي تلاقى مع معاوية في صفين وكان انتصاره وشيكًا لولا أن رفع جيش معاوية المصاحف محكمين – وقبل وحكم أبا موسى الأشعري، وحكم معاوية عمرو بن العاص. فخلع أبو موسى عليًا وتبت عمرو معاوية.

ونقم بعض أصحاب على عليه أنه "حكم فيما هو حق له" فخرجوا عليه فنازلهم بالنهروان سنة ٣٧ فهزمهم وتآمر ثلاثة من "الخوارج" عليه فقتلوه – وبايع الجمهور الحسن بن علي حتى تنازل وأخذ معاوية البيعة لنفسه وقامت دولة بني أمية من سنة ٥٤١ حتى ١٣٢هـ تاريخ قيام بني العباس، لكن الخوارج لم تخب نارهم فأقضوا مضاجع الخلفاء والولاة الأمويين والعباسيين وسنرى أبطالاً من بني شيبان في كل جانب.

وانقسم الخوارج فيما بينهم فصاروا أفراقًا تطيعها البساطة والقوة والشدة على النفس والغير في الدنيا والدين. كان (الأزارقة) أشدها على المسلمين: كفروا بالذنوب وكفروا القاعدين عن الجهاد. ولم يقبلوا دعوة غيرهم للصلاة.

وعمران يعد أعظم شعراء الخوارج عامة إن لم يكن أشعر الشعراء على الإطلاق في عصر الفرزدق وجرير والأخطل كما يقول الأخطل نفسه عندما اجتمع الشعراء لدى الخليفة عبد الملك بن مروان.

سأل الخليفة: أبقى أشعر منكم؟ فقال الأخطل: قد بقى عمران بن حطان وهو أشعر منهم لأنه يقول الشعر وهو صادق ففاقهم، فكيف لو كذب كما يكذبون.

وعمران هو القائل في الحجاج يوسف الثقفي:

أسد في الحروب نعامة فتخاء تنقر من صفير الصافر
هلا برزت إلي غزالة في الوغي بل كان قلبك من جناحي طائر

والبيتان من أجمع الشعر للبيان العربي وأسيره على ألسن العرب، وفيهما مثل يضرب. وهما شهادة مجد من أكثر من وجه لبني شيبان. فغزالة زوج لشبيب ابن يزيد بن نعيم الشيباني زعيم الخوارج الصفرية وقد وقعت بينه وبين الحجاج حروب كثيرة كان أكثرها على الحجاج، وكانت غزالة من حافظات القرآن، وهي التي قادت جيوش الخوارج في شجاعة الأبطال حين

ولم يجيزوا الزواج من الآخرين. أو الميراث أو الشهادة أو أنفقه أو الحديث. ويجيء بعدهم في الشدة (النجدات) ويلي هؤلاء (الأباضية) ثم (الصفرية) أخفهم وطأة: الكبائر عندهم نوعان نوع يحد مرتكبه كالسرقة والزنا فمرتكبه ليس كافرًا ولا مشركًا ونوع لا عذر فيه لفداحة جرمه مثل ترك الصلاة والفرار من الزحف ومرتكبه مخلد في النار.

وهم يلتقون على مسائل أساسية. منها أن الإيمان عقيدة وعمل وأن الخلافة حق لكل مسلم بل يؤثرون أن يكون الخليفة غير عربي ليسهل عزله إذا انحرف. والخلافة عندهم بانتخاب حر.

والدين شجاعة وتضحية وجهاد.. وبطولاتهم في الجهاد الديني – وإن خطئوا الطريق – لها في التاريخ مكان. وكانوا كما يعبر عنهم خطيبهم (أنضاء عبادة وأطلاح سهر. شبابهم مكتهلون عفيفة عن الشر أعينهم). لا يعرفون التقية للنجاة بحياتهم بل يموتون شجعانًا في سبيل معتقداتهم. أرسل معاوية يومًا إلى قائد منهم أباه ليرده عن الحرب قال الأب لابنه: ألا أجيئك بابنك. فلعلك إذا رأيته تكره فارقه. قال: (أنى إلى طعنة من يد كافر أشوق مني إلى ابني) والكافر هنا هو المسلم في جيش معاوية.

أحمد بن حنبل

دخلت الكوفة فهرب منها الحجاج واحتمى منها بغرفات القصر، لكن الدائرة دارت على الخوارج فقتلها جبار بني أمية وقتل أم شبيب – وكان يتحدى النساء وهو يقتلهن فكن يزرين به.

قال لإحداهن: والله لأعدنكم عدًا وأحصدنكم حصدًا قالت أنت تحصد والله يزرع، فانظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق.

وفي العام التالي أسعد الطاغية حظه. فمات شبيب غريقًا في دجيل الأهواز سنة ٧٧ بعد أن قتل من قواد الحجاج خمسة وحمل عليهم أكثر من ثلاثين حملة.

يقول شاعر بني شيبان عتبان بن وصيلة الشيباني لعبد الملك بن مروان مفاخرًا ببني شيبان – وهم من بكر بن وائل – وبشبيب، فيضعه في مقابل مروان وابنه، منددًا بالحجاج بن يوسف وهو من ثقيف:

فإنك إن لا ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب
ولا صلح ما دامت منابر أرضنا يقوم عليها من "ثقيف" خطيب
فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنا سويد والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين "شبيب"

علا شأن عمران بين الخوارج الصفرية حتى أمروه عليهم إلى أن مات سنة ٨٤ – والخوارج يلقبون أميرهم (أمير المؤمنين).

وازداد الخوارج الصفرية شأنًا حين تزعمهم الضحاك بن قيس الشيباني. وانضم إليهم من أبناء الحلفاء عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وكان واليًا على العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وسليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان. واجتمع له مائة ألف مقاتل زلزلوا الدولة الأموية.

وعمران بشموخة في الأدب والسنن والجهاد وزعامته للخوارج يمثل فرع أحمد من بني شيبان أصدق تمثيل.

صفية بنت.. شيبان:

حملت "صفية" تبعاتها في تنشئة فتاها، فلم تعد تورقها هموم المغتربين بمرو، وهي الآن في جوار أخوين لزوجها ببغداد. أولهما عبد الله حنبل، وله ابن اسمه أحمد بن عبد الله بن حنبل سيروي عنه الحديث وسيحدث عنه عبد الله ابن الإمام أحمد، وثانيهما إسحق، وسنراه الجار اللصق لأحمد، ونراه أطول صحبه صحابة له، فإسحق قد سبق أحمد إلى الوجود ببضع سنين وسيعيش بعده بضع عشرة.

وكان لصفية أخت تزوجت في خراسان من خراساني، ولأحمد منها ابن خالة يدعى أبا أحمد.

حرصت الأمر على تعليم ابنها اللغة والأدب والقرآن والحديث والآثار منذ الحداثة، وعلمته الفارسية أو قليلاً منها إذ عرفتها إبان إقامتها بمرو. وأتيح له معلمون عظماء حفظ عليهم القرآن وهو غلام. يتصدرهم من كبار القراء يحيى بن آدم (٢٠٢) ومنهم سعيد بن الصباح وإسماعيل بن جعفر وغيرهم.

وكان حقًا عليها له أن تمتعه بوقائع المجد من أهل بيته وبيتها. والذكر النابه والأصل النابع أرفع المواريث والأحاديث عند العرب. وتراث الفرعين من بني شيبان أغلى المقتنيات، وأثمن ما تمنحه أم متطامنة لا تذعرها خفة ذات يدها. وفي القصص أبلغ المواعظ لصغير يتعلم على امه. وبخاصة إذا كان ما تلقنه معلومات عامة مسلمة.

بهذا أضحت جلائل المجد التي اختص بها أصوله قصص المغدى والمراح له، ومسلاة معلمته، مقرونة بالسيرة العطرة، سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وسير أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وإلى جوارها أخبار معاوية ودغفل وعمران وشبيب وغزالة وكبار الصحابة والتابعين وتابعيهم أو أدباء العربية الكبراء، أو المحدثين عن أم المؤمنين كد غفل ومحارب وعمران، أو بطولات الفرع الآخر من بني شيبان، المثنى مع أبي بكر وعمر وخالد وسعد، والمعنى مع كسرى، ومسعود مع أخويه، ثم معن ويزيد مع خلفاء بني العباس أو النهر الآخر الذي تتدفق فيه البطولات وإنكار الذات، نهر الخوارج، الذين يأخذون أنفسهم والناس بالشدة في الدين. وأميرا المؤمنين فيهم عمران وشبيب. أو قيام الدولة العباسية ودور أهله في ذلك بوقائع تجل عن الحصر ومفاخر ليس لها آخر.

وحسب الرجل منها واقعة واحدة ليسبح السبح الطويل في بحار المعرفة العميقة الواسعة – فما بالك بالفيض العميم من الوقائع المجتمعة. وكأنها مدارس شتى في فنون المعرفة يكمل بعضها بعضًا في العمل للدين وفي العلم والفقه واللغة والأدب والحرب والسلام، مع التضحيات وإنكار الذات، فما أسعد الحدث الناشئ بحظه من ذلك كله يتلاقى بين يديه وكأنما يهيب به أن يدلي بدلوه كمثل ما صنع أهله الأقربون من شيبان، وكمثل ما أدلى بالدلاء أبناء الصحابة العظماء، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عوف والزبير والعباس وعمرو والآخرين وحفدتهم، مخبتين في محاريب العلم، مدركين أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد بعث به، وأن عليهم تعليم أمتهم، مؤثرين تبعات العلم وما فيها من تضحيات على جاه الولايات والإمارات.

وعندما يقتدي الفتى الناشئ بهؤلاء فهو يهتدي بغريزته إلى إتباع الأمر الأول من عمل النبي الذي ورث العلم ولم يول الولايات أهله، ومن عمل صحبه، الذين بلغوا عنه.

وفي الغريزة حصاد البيئة من بقايا الماضي ومعاناة الحاضر وهتاف المستقبل وتربيب الفطرة الأصلية النبيلة على يد أم ذات بصيرة، تؤثر له الانطلاق في سماء المعرفة العالية، على السعي في الدنيا لمعاشها ومعاشه.

والذي يحتفظ القرآن بحفظه القرآن، ويقدم له بين يديه بشريات محققة وفتوحًا في الفكر والنفس والحياة الواقعة. وكلما فهم قارئ القرآن أكثر فتح له أكثر في العلم واللغة وأدب الدنيا والدين وأدب النفس.. ومن أجل ذلك وغيره يؤم العارفين بالصلاة أقرؤهم للقرآن وفيهم أنفقهم أو أسنهم أو أشرفهم أو أقدمهم هجرة.

* * *

لم تدخر صفية جهدًا في العناية بفتاها وجمع الذخائر له، ثبت أذنيه، ووضعت فيهما لؤلؤتين. فلما ترعرع نزعتهما واحتفظت بهما ولكن الضيقة كانت أقسى من أن تستبقي الذكريات. أو لعله حسب اللؤلؤتين ترفًا لما يفع، فباعهما بثلاثين درهمًا.

وانكب على حلق الحديث انكبابًا وهو في السادسة عشرة، فكانت توصية بالاعتدال إذ تراه يحث الخطى إلى مجلس شيخه قبل إسفار الصباح يقول:

"كنت ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أمي بثيابي وتقول: حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا – وكنت ربما بكرت إلى مجلس أبي بكر بن عياش"..

ولاحمت الأم غلامها بنفسها، فهو كل شيء في الدنيا لها، وهي أهم شيء في الدنيا له.

جاءته الفرصة منقادة في سنة ١٨٦ ليلقى عالم الري جرير بن عبد الحميد إذ قدم إلى بغداد، وحال بينهما الموج لارتفاع مياه دجلة حتى نزل الرشيد بأهله وحرمه وأمواله إلى السفن، حذر الدمار الذي تهدد به الفيضان بغداد، وكان أمير بغداد قد أمر الناس ألا يعبروا خشية الغرق، وجرير ينزل على بني المسيب في الجانب الشرقي، فاستجمع المتفقهون جسارتهم فعبروا ليسمعوا جريرًا إلا أحمد لم يعبر وقال لزميل دعاه للعبور معه: أمي لا تدعني.

فأحمد لم يرجع عن العبور حذر الموج أو طاعة للأمير، وقد خرج على أمره الآخرون، وعبروا، بل أطاع هوى أمه وإن لم تفصح له عنه، بمجرد عدم إذنها له، وإن لم يطلبه، فهو عليم بهواها. وهو يؤثر رضاها على العبور لتلقي العلم، والمعلم في جواره.

وسنسمعه في مناسبة أخرى يقول مقال من ألم بذنب: خرجت إلى الكوفة فكنت في بيت تحت رأسي لبنة فحممت فرجعت إلى أمي، ولم أكن استأذنتها.

ومن إكبار أحمد لأمه فاض إكباره للأمهات كافة. فيبكي ويترحم على أبي حنيف كلما تذكر أن أبا حنيفة إذ أطلق سراحه بعد أن ضرب ليلى القضاء في عهد بني أمية كان يقول: كان غم والدتي عليّ أشد من الضرب.

وينقل عن أحمد في فقهه: الطاعة للأب. وللأم ثلاثة أرباع البر. ثم الأقرب. وكانت صفية له أبًا وأمًا فكان كل بره لها.

وأحمد أتبع الناس لقوله عليه السلام عندما يسأله سائل: "من أحق الناس بحسن صحابتي. فيجيب: أمك فيقول السائل ثم من؟ فيجيب أمك – فيعيد السائل السؤال ثم من؟ فيقول الرسول ثم أبوك"، ونلمس رقة قلب أحمد لأيام يتمه إذ يسأله سائل وهو إمام المسلمين، كيف يرق قلبي؟ فيجيبه ادخل المقبرة، وامسح رأس اليتيم.

وأيام يتمه وثيقة العرى بأمه. من كل وجه. كانت في مطالع حياتها إذ مات محمد ابن حنبل في ربيع شبابه، وكان حقًا لها أن تغير على القائد الذي قضى نحبه فتبنى بسيد مثله أو قريب منه، يصهر إلى فروع المجد الباسقة من بني شيبان، لكنها ارتفعت فوق نعمى الحياة الوادعة التي درجت عليها الأمهات الفتيات، مؤثرة طفلها على ما عداه، ترضعه لبان الإيثار والمرحمة والمحبة والعفة، مع تكريس الحياة للغرض النبيل، والفناء الذي يعدل الخلود إذا كان ثمة واجب يؤدى، والاعتماد على الله وحده والرضا والصبر.

وسيجزى أحمد صبرها الطويل وعفافها النبيل بذكر دائم وشكر لا ينفد، ويجزي بهما أباه لحسن اختياره لها وإيثاره إياها على كل العرب والعجم في خراسان أو في بطون غير بطنها من بني شيبان، وليس أبلغ في ذكرها وشكرها من تقليده لها. والتقليد إعجاب.

ولسوف نرى أحمد معلمًا عظيمًا للصبر، وستراه يصدف عن الزواج، وربما من أجلها، طيلة أيام الشباب، كهيئة ما صبرت الأيم الشابة طول حياتها من أجله، وسيجزيها الجزاء الأوفى الذي جمل وجه الفقه كله وكمله، بالحماية الرائعة لحقوق المرأة والاتجاه في كل أمر إلى الرحمة، وبخاصة فيما يتعلق بالأم والزوجة وذوي، القربى أي بالمجتمع الصغير وهو الأسرة، نواة المجتمع كله.

ولما تتابعت سفراته ودراساته تتابع أيام حياته على مدار سنوات أربعين، وفي كل منها مشقة وضيق، كانت اندفاعًا في طريق ترضاها أمه، فلو عارضته في وجهة اتجهها لأطاع، وبهذا كان إيثاره مجد العلم على السعي في سبيل الدنيا مجدًا لها معه تتكرر به صور أمهات الأئمة الثلاثة السابقين عليه، قصرن على صغارهن أيام الحياة ليصيرنهم أئمة، فيدللن الناس على مكان المرأة من صلاح الدنيا، بالأيدي التي تؤرجح المهد وترشد النشء، وتدفع البشرية إلى التقدم.

هكذا تقرأ في صفحة ميلاد أحمد حقائق ستتردد في سائر الصفحات من سجل الحياة: الترحال منذ هو جنين في بطن أمة، والهجرة أو الغربة دأب أبيه وجده، واليتم والعزة حظه، والإضافة التي تهديها إليه شهر دراهم بضعة عشر! وهي خلائق كفيلة بتلوين أيام الحياة بألوان حرمان وقتامة، ومن آثار الطفولة ما يدخل القبر مع الشيخ الهرم.

لكن في دماء العظماء كيمياء قادرة على تحويل العناصر. وكثيرًا ما كان التحول من النقيض إلى نقيضه. فتسمى أسباب الضعف أسباب قوة. فإذا الترحال الدؤوب يصبح من مألوف عاداته. يتخذه ركوبه طيعة للعلم. تقرب عليه الشقة وتهون المشقة. وتجعل تبعات البنوة الشفيقة لأم وحيدة حملاً لا يبهظ كاهله بل حافزًا يستحثه. وغدت الوحدة قوة تولد القوة، واستجب فاقة العلماء وصار الحفاظ عليهما همه، أي آثر فقر الاختيار، كما يسمى الشافعي فقر العلماء، فأضحى أفضل الناس.

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "أفضل الناس مؤمن مزهد" "قليل المال".

غلام يتورع:

نبه شأن أحمد في بغداد وهو غلام، وكان من أولى بوادره أن يستأذن نساء الحاشية معلم الكتاب ليأذن فيه لهن، ليكتب جواب الكتب الواردة من أزواجهن في حاشية الرشيد، إذ هو بعيد من بغداد. وإن المعلم، فكان أحمد يذهب إليهن نقي القلب غضيض الطرف مطاطئ الرأس من عفة وحياء، وربما أملين عليه منكرًا من القول أو زورًا فلا يودعه الكتب، فلم يجر قلمه بمنكر حتى ولو كان منكر الآخرين أو كان هو غليمًا يؤمر ويأتمر.

وهذه العفة عن تسطير المنكر كمثل طأطأة الرأس والورع عن التحديق وجهان لخلق واحد هو العفاف من عين باصرة أو يد ممسكة ببراعة.

روى واحد من زملائه أن أباه كان يقول أنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل، انظر كيف يخرج! وجعل يعجب ولا عجب. فغ،ما هي أم صالحة قدرتاه السماء لتخرجه، قد أحسنت تربيته، فغدا نقي الضمير، تقي التعبير، تنضيه العبادة!.. يقول إبراهيم بن شماس العابد الزاهد الذي مات في غزوة خرج لها من أقصى ثغور الإسلام في سمرقند سنة ٢٢١، وكنت أرى أحمد بن حنبل يحيى الليل وهو غلام".

وجرى شعر الورع على لسان أحمد حتى إذا استوى إمامًا في الأمة وفد عليه عالم لغوي هو ثعلب (أحمد بن يحيى) وكان من موالي معن بن زائدة، والعرب تقول عنه وعن المبرد: العالم بينهما، فسأله أحمد: فيم تنظر فأجاب: في النحو والعربية فأنشده أحمد أبلغ الشعر:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا عن الأيام حتى تتابعت ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى ويأذن في توباتنا فنتوب
إذا ما مضى القرن الذي أنت فيهمو وخلفت في قرن فأنت غريب

وكثيرًا ما ردد أحمد:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

وكان من أهله من يعملون في خدمة الدولة، وكان يختلف إلى الديوان وهو ابن أربع عشرة سنة كما قال.

obeikandl.com

وليس واضحًا لنا إذا كان اختلافه لقبض حقوق لأسرته، وأبوه قائد وجده وال. أو كان يتردد على أهله من عمال السلطان هناك، أو كان يتعلم شيئًا من أحد. فلا نضرب كثيرًا في الخرص والتخمين عن أسباب اختلافه: وحسبنا أن عمه كان المسئول عن أخبار بغداد لداود بن بسطام عامل البريد للرشيد، وهي منزلة كبرى لصاحب الأخبار على العمال والولاة أنفسهم، منذ اتخذ معاوية بن أبي سفيان نظام البريد لنقل الأخبار بين الخليفة وعماله، وباشره بعض خلفاء بني أمية بأنفسهم، حماية للدولة، فلما ولي لخلافة أبو جعفر المنصور كان يقول: "ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم وهم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية". ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول آه.. آه... قيل ما هو يا أمير المؤمنين قال: "صاحب يريد خبر هؤلاء على الصحة".

وكان صاحب البريد يوافيه بما يحدث في الدولة طول النهار: يقرؤه إذا صلى المغرب، وبما يحدث طول الليل.. يقرؤه إذا صلى الصبح.

وازداد النظام تقدمًا في عهد المهدي لدولة تمتد من جبال طوروس شمالاً إلى السودان جنوبًا، ومن الصين إلى شواطئ الأطلسي، وكانت له محطات على طول الطريق وديوان كبير في بغداد.

على أن أحمد إذا لم يعمل مع عمه في خدمة الدولة، قد أفاد من عمل عمه مقاربة لمصادر الأخبار عن الأشخاص والأشياء وعن الخلفاء والجواري والمغنيين وعن القتل والوقيعة، وافتراض الفرص، والسعي للغنى والجاه. ومن الأخبار ما يشبه الوقر في الأذن في عصر يدعي فيه الخلفاء أن خلافتهم خلافة دينية، رحب بها لذلك المسلمون. وأحبوا المهدي إذ جاءت على يديه بشريات الرحمة، ومالت الأنفس إلى الرشيد إذ كان تقيًا وبطل حرب وعنوان سماحة.

لكن مؤشرات التطور كانت تنجذب نحو مستقبل مظلم. يتراءى في إرهاصات أخبار وجلة، تفصح عنها أشعار جريئة، ترددها الخاصة والعامة. وربما أجمل همسها ووسوستها بيت شعر واحد نظمه بشار بن برد في خلافة المهدي من سنوات قليلات فتناقلته الألسن قبل أن يضرب ضرب التلف حتى يموت:

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

ورب قول أشد من صول

* * *

obeikandl.com

ثم تلاحقت أخبار خلافة الرشيد (١٧٠ – ١٩٣) تكشف بين يدي فتى لا يكاد يتخطى البقاع على فتاء السن، الأقنعة المبرقعة لوجوه الكثيرين من سروات المجتمع. وتلقى إليه السمع من شائعات كوشوشة الزنابير في وهج النور الذي تسطع فيه الحاشية. فمد بصره فصار أعلى عينًا بالنزوات والانحرافات، وأسعفته فطرة الورع، والقرآن الذي يرتله، ويتأمله، وقيام الليل وصيام النهار، فتفتح قلبه بمثل ما تفتح بصره على اضطراب الضمائر بين الطمع والحماقة في سعي الناس وشقائهم، يعيش الكثيرون منهم وكأنهم يعيشون أكثر من حياة واحدة، ومنهم من يودون لو جمعوا الدنيا كلها في قبضة يد. والذين يريدون ليشربوا من البحار كلها ماءها كله. ومنهم النيام وأصحاب الغفلة.

والخليفة المأمول يستفتح خلافته بالتسلب المرذول من السلطة.. "فيفوض" أمور الخلافة إلى أستاذه يحيى بن خالد بن برمك [١٤]. والأنباء سارية بالليل سارية بالنهار عنه وعن وزرائه الفرس، وأساطير الغناء والشراب والنفوس الشرهة والقلوب الشرسة، والبذخ الذي لم يألفه العرب ولم يعرف أبوه إلا بعضه. وفي القليل منه كفاية لسخط المتيقن وعجب الماجنين، وارتياب الأمة. وهو حسب شاب ورع كأحمد ليعكف على أسباب دينه يبحث عن خلاص نفسه. فيصدف عن الطواف حول عمال الخلافة أو السرودات أو أصحاب الثروات. ليستخلصه السمو المطبوع، الذي ركبت منه نفسه، والورع الذي خصته السماء به بين نظرائه، ويتعالى كالغرس الباسق في التماس الدفء والضوء. تدفعه إلى أعلى، قوى كبرى، تثبت فؤاده وتهديه إلى التي هي أقوم.

هكذا نرى أحمد في غرارة صباه حيث نرى عمه وفرسان بني شيبان، في الصفحة الأولى من سجل الحوادث.. وهو بين أترابه أشكلهم طريقة وأمثلهم سليقة، وكأنما ولد كبيرً.. حتى لنسمع قول القائل عنه بعد عام أو عامين: رأيته في أيام هشيم ولو قدر.

---

(١٤) وزارة التفويض تعطي الوزير الحق في إدارة شئون الدولة دون رجوع للخليفة ووزارة التنفيذ يحكم بها الوزير منفذًا آراء الخليفة.

ويزداد قدرًا كلما ازداد عمرًا – فيدخل وهو فتى على مجلس إسماعيل بن علية فما يبقى في البيت أحد إلا وسع له وقال: ها هنا ها هنا.

ولم يكن بدعًا ولكن كان من طبائع الأشياء أن يؤالف الطبع الطهور بين مراحل التطور، وأن يهدي كل طور من الورع إلى أطوار أخرى أهدء وأطهر، بالعمل المستمر، مع التقدم في العلم والعمر، وإذا هذا الفتى من شيبان، ولهم من تكريم الدولة والأمة في كل يوم شأن، وهم أبطال حرب ونزال – هذا الفتى الذي تتراءى في عقله الباطن رؤيا أبيه القائد، فلا يميل إلى العمل الحربي ميله، ورؤيا جده الوالي أو رجل السياسة، فلا يقبل على الحكم والسياسة مثله، بل يتخطى بفكره وفعله صناعة السيف وحرفتي السياسة والإدارة ويطوي كاشحًا عن دواوين الدولة وفيها عمه، وينحى رؤاها جملة من خياله، كأنها عقبات أو معوقات عن الانطلاق، ويتجه بإخلاص وإصرار وجهة أخرى أشرف وأسمى. ثم ينطلق في اندفاع عنيف كقوى الطبيعة التي لا تقهر نحو مصيره الذي واعده عليه القدر.

ويوم انتسب فتى شيبان إلى مجد العلم أوى إلى نسب جديد تضؤل دونه أنساب القبائل. وأين بنو تيم من أبي بكر، وبنو عدي من عمر، وأين الفرعان في شيبان من المثنى بن حارثة ومن أحمد بن حنبل!!

ولقد كان هذا الزهد في المجد أول الزهد ليسير عليه كل زهده بعده، فيزهد زهدًا يفوق فيه نفسه.

ولما جمع بين الزهد في المجد وبين الانكباب على العلم، لم يك زهده زهد المتسلبين، بل كان آية للعاملين وللناس، على أن الزهد في زخرف الحياة أداة صالحة للعمل في دنيا الناس لا للرهبنة. وأعاد لهم ذكريات الصحابة، وعلمهم بعضًا من دروس الرسول الكريم.

ولما بدأ وهو في السادسة عشرة من عمره بقاضي القضاة مدرسًا أول، كان من إطراد الخطى أن يرقى مراقيه من سفوح الطموح إلى قمة الفقه في توازن وثقة، بالرأي الثاقب لا بالصدفة، فيقوده إخلاصه وسليقته إلى حلقة محمد بن إدريس الشافعي، فيدأبان، كما يدأب القمران، في الانتصار للسنة، وهاتان خطوتان تتراءى فيهما جميع الخطوات التي كتب عليه أن يمشيها.

فلم يبق لسائل أن يتساءل: أهو اليتم الذي هو مدرسة الأنبياء والأئمة؟ أهو بيت العلم الذي اختص به فرع أحمد بن شيبان؟ أهو بيت الجاه من والي سرخس وابنه القائد؟ أهو بيت المجد من بني شيبان في الجاهلية والإسلام؟ أهو الاغتراب الذي كتب على الوالي وبنيه.. قد قاد خطى الحفيد ليعوض شيئًا فاته؟ أهو دعاء الأم له وكفاحها معه وتسديدها لخطوه.. قد حفزه ليدرك الغايات العالية؟ أم أنها الفطرة العميقة الجذور فطر عليها حدث متوكل على الله توجهه السماء، ما تشاء، إلى نصرة الدين.. أم أنه اجتماع هذه الأشياء في الزمان والمكان والرجال، صنعتها وجمعتها يد القدير العليم، ليصنع منها، على عينها إمام المسلمين.

obeikandl.com

الفصل الثاني

البدء من القمة

١٨٢ هـ – ٢٠٤ هـ

خرجت من بغداد وما خلفت فيها رجلاً أفضل

ولا أعلم ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

الشافعي

- **من حلقة أبي يوسف**
- **حلق المحدثين**
- **اللغة**
- **السيرة**
- **مع الشافعي**
- **عصر الرشيد وبنيه**
- **عصر أحمد بن حنبل**

obeikandl.com

نحن الآن في سنة ١٧٩ للهجرة، وأحمد بن حنبل فتى في الخامسة عشرة يسبح في محيط من أدب القرآن والسير النبيلة، أحسن تأديب نفسه ثم اتجه بها إلى الدراسات العالية. وفي بغداد دراسات شتى في علوم العصر. من علوم الحديث والفقه والسيرة واللغة والشعر، إلى علوم الفلك والطب والكيمياء والطبيعة والرياضيات العالية وعلوم الكلام والفلسفة وترجمات لعلوم العالم كله حتى ذلك الزمان، من اليونان والفرس والهند ومدرسة الإسكندرية العظيمة وسواها، لكن الأمة كانت تكن وتعلن الاحترام الأعظم لحلق الحديث وحلق الفقه، فهذه مدرسة الشريعة، وإن كانت الصدارة لحلق الحديث لكثير من الأسباب. منها أنه الأصل الأول لتفسير الكتاب العزيز والأصل الأول، بعد الكتاب، لاستخراج الفقه، وأنه حديث الرسول عليه السلام، أما الفقه فرأى الرجال.

من حلقة أبي يوسف:

وكانت حلقة أبي يوسف أعظم الحلق في الدنيا مكانة وعلمًا منذ مات مالك سنة ١٧٩. ولقد رأى أحمد بن حنبل النور سنة ١٦٤ وأبو يوسف باقعة العصر في إبان خلافة المهدي والرشيد حتى مات سنة ١٨٣، تجتمع فيه أسباب الشرف العلمي والجاه الحكومي على نحو لم يجتمع لأحد قبله أو بعده. فهو الإمام الثاني في مدرسة الرأي، لكنه يضيف إلى عظمة الفقه أمروًا رفعت قدره في التاريخ الإسلامي. منها أنه مكن للفقهاء أن يعملوا في خدمة الدولة، فينشروا أجنحة العدالة والمشروعية في آفاق النشاط الحكومي كله، وأنه جمع بين الحديث والفقه فصار أتبع أصحاب أبي حنيفة للحديث، ومن أبي يوسف جرى تيار التقريب بين المحدثين وأصحاب الرأي.

يقول فيه يحيى بن معين صاحب أحمد بن حنبل: "أبو يوسف صاحب حديث وصاحب فقه"، ويقول: "ليس في أصحاب الرأي أكثر حديثًا ولا أثبت من أبي يوسف".

وكثير من أصحاب الحديث يثنون عليه، وقلما يوجهون ثناء إلى أحد من أصحاب الرأي، أما الذين تحاموا حديثه فتحاموه – كما يقول الطبري – لغلبة الرأي عليه وصحبته للسلطان وتقلده للقضاء، سموا منهم بالحديث عن أن تخالطه رغبة في الدنيا.

تعلم أحمد في هذه الحلقة أهمية السنن للفقه، فكانت الفكرة تكبر معه وتتضح أبعادها له، تبعًا لكبره وتعليمه، وفي الفترة ذاتها سينبهه على جمعها وافد من مصر يلقاه على باب هشيم، أستاذه المعاصر لأبي يوسف.

وسيلقى أحمد من محدثي الأمة كل من آنس لديه أحاديث ليست عنده، وسيلقى محدثين أعظم في الحديث من أبي يوسف، بل سوف يلقى الشافعي ذاته، لكن أبا يوسف سيمتاز منهم كافة بأنه بين أساتذة أحمد هو الأول، وسيمتاز أحمد لذلك بابتداء الصعود من قمة أبي يوسف، ليتابع التحليق في الآفاق البعيدة، في اطمئنان نفس ألفت العظمة ومقاربة القمة، وفي نسب علمي رفيع كأنه الحسب العائلي الذي لا ضريب له.

وأبو يوسف هو يعقبو بن غبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة، جاء جده النبي عليه الصلاة والسلام يوم أحد ليحمل السيف، فاستصغره فرده كما استصغر أبا سعيد الخدري والبراء بن عازب وردهما. وفي يوم الخندق كان سعد قد استوى محاربًا في الطليعة – فرآه الرسول وهو يقاتل قتالاً شديدًا فدعا له وقال له من أنت؟ قال: سعد بن حبتة. قال عليه الصلاة والسلام: "أسعد الله جدك" ومسح على رأسه، وأي سعادة جد له ولحفيده وللإسلام كمثل أن يكون هذا العلم في حفيده، وأن يكون الرشيد من تلاميذه، مع أنه كخلفاء بني العباس كانوا في العلم يأخذون أخذ جدهم عبد الله بن عباس.

عين المهدي أبا يوسف في القضاء. لكن الرشيد أنشأ له وظيفة قاضي القضاة منقولة من النظام الفارسي –موبذان موبذ – ففصل القاضي بين السلطات، فلم يعين قاض إلا بمشورته، ولم يعد القاضي يؤامر الخليفة في قضاء، وبهذا استقل القضاء عن الخلفاء.

فإذا صحب أبو يوسف الرشيد في أسفاره فهو عدل أمير المؤمنين على بعير واحد، بل كان يدخل عليه راكبًا بغلته فيلقاه الرشيد بالنشيد "جاءت به معتجرًا ببرده...".

وفي مكة أشار على الرشيد أن يتقدم لإمامة المصلين فصلى الرشيد الصلاة ركعتين وسلم. ونادى أبو يوسف: يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإن أمير المؤمنين مسافر. ونحن قوم سفر. فنادى رجل من أهل مكة:

"يا أبا يوسف نحن أعلم منك وممن علمك".

فأجاب أبو يوسف، لو كنت أعلم لما تكلمت في صلاتك.

واستمر الخارج من صلاته يقول: نحن مهبط الوحي وجبل الحرمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء.

قال أبو يوسف: لكنها ما استقرت على جيلكم بل سالت إلينا في الشعاب والأودية فاستقرت عندنا. كذلك فعل المطر.

* * *

جلس إلى حلقة أبي يوسف، من قبل، محمد بن الحسن الشيباني الصاحب الثاني لأبي حنيفة، وهما يتجاريان في التاريخ على أنهما الصاحبان، وإذا ذكرنا قول بعض العلماء بأن المذهب الحنفي في الواقع من عمل جماعة منهم الأئمة الذين شاركوا الإمام الأعظم، فأبو يوسف ومحمد أولهم. وعندما يتحدث الشافعي عن (كتاب أبي حنيفة) يعني محمدًا وأبا يوسف في المقام الأول.

أما دراسة محمد علي أبي حنيفة فقصاراها عامان. ولم تكن سنة تزيد على ست عشرة. وكذلك كانت عمر أحمد إذ جلس في حلقة أبي يوسف، أو تقل شيئًا، وإن كانت مدة دراسة أحمد علي أبي يوسف ضعفي مدة دراسة محمد علي أبي حنيفة.

ومن تأثير الشيوخ ما يشبه السحر، ومن لمسات الأئمة ما يشبه الرفعة الكبرى إلى السماء.

وأثر محمد مسلم. فقه المذاهب كافة، فكتبه أهم ما قرأه الشافعي لمدرسة الرأي، والشافعي معلم أحمد الأكبر، ومأثرة محمد أبين وأظهر في تعليم أسد بن الفرات وتوجيهه الأسئلة التي وضعت بالأسدية وهي النسخة الأولى – أو كالمسودة – للمدونة التي تحوي فقه مالك [١٥]. وسيسأل أحمد بعد: من أين لك هذه المسائل الدقاق؟ فيجيب: من كتب محمد بن الحسن.

كان أبو يوسف يحضر العلماء على طبقاتهم لينهلوا من أفاويق علمه ولشهدوا التطبيق العلمي في مجالس حكمه، فيتعلموا النظرية والتطبيق. ومن علم أبي يوسف وتطبيقاته جمع أحمد في سنوات أربعة قماطر ثلاثة كما حمل الشافعي من كتب محمد بن الحسن وقر بعير.

والتاريخ يسلم بأبي يوسف الاقتدار بيسر على حل المشاكل، والقضاء حلول للمشاكل، ويسلم له الاتجاه بمدرسة الرأي كلها إلى الحديث.. ففي مضمار اليسر الفقهي والاتجاه للحديث

---

(١٥) مالك إمام دار الهجرة – للمؤلف طبعة دار المعارف ص (٢٧٧).

خطا احمد أولى خطواته، وتابع الخطو، ليصبح تيسير تطبيق الحديث في الأحكام الفقهية خصيصته الكبرى ويصبح اليسر في الفقه كله خصيصته الأخرى.

استرجع قاضي القضاة سيرة حياته وهو يبرح دار الفناء إلى دار البقاء فوجد أخطاءه لممًا، فبكى تذممًا لا تأثمًا. وناجى ربه بقوله: اللهم إنك تعلم أني وليت هذا الأمر، فلم أمل إلى أحد الخصمين إلا في خصومة نصراني مع الرشيد لم أسو بينها وقضيت على الرشيد.. لم يمكني أن آمر الخليفة بالقيام والمحاباة (الموازاة) مع خصمه، لكني رفعت النصراني إلى جانب البساط ما أمكنني ثم سمعت الخصومة قبل أن أسوي بينهما في المجلس.

وأثر أبى يوسف على تلاميذه وتلاميذ أبي حنيفة هو الذي طوع للجاحظ (٢٥٠) أن يقول: "وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عامًا وهو لا يعد فقيهًا ولا يجعل قاضيًا وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فظن أنه من بعض العمال وبالحري ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكمًا على مصر من الأمصار"..

لكن مجلس قضاي القضاة وكتب مدرسته العليا لتخريج القضاة والولاة كانت بالنسبة لرجل لا يلتمس الولايات، بل يطلب ما هو أعلى وأعظم، مجرد مدرسة أولى، تعد لدراسات أعلى، في سنن الرسول عليه الصلاة والسلام وجمع حديثه.

وجمع الحديث عمل عالمي فوق قدر قاضي القضاة واقتداره، إذ يتعدى عمله، ويتجاوز عمره، ويحتاج إلى عمل الفريق، مع التفرغ الكامل والدأب الذي لا يعرف الكلل: وكان ميلاد التصميم عليه من عهد أبي يوسف والاتجاه إلى تنفيذه نصرًا مؤزرًا لأبي يوسف وفوزًا مضاعفًا لأحمد. إذ يظفر بمهمة حياته وتكون المهمة متعلقة بالرسول ذاته، ﷺ، لا مجرد تشريف بوظيفة من وظائف الدنيا التي يتحدث عنها الجاحظ.

والجاحظ يتكلم عن الناس الذين يعهدهم، وأحمد نسيج وحده.

حلق المحدثين:

ويعتبر البعض أن أول أساتذة أحمد هشيم بن بشير السملي الواسطي [١٦] (١٠٤ – ١٨٣) وهشيم شيخ المحدثين بالعراق في عصره. لكن أحمد نفسه يقول: أول من كتبت الحديث عنه أبو يوسف.

روى مالك بن أنس عن هشيم مع أن مالكًا (٩٤-١٧٩) أسن منه، وروى عنه المحدثون من ضرباء مالك وأشياخ أحمد مثل عبد الرحمن بن مهدي ووكيع بن الجراح ويزيد بن هرون، وكان عند هشيم عشرون ألف حديث، وابن مهدي يراه أحفظ للحديث من سفيان بن عيينة، محدث مكة وأستاذ الشافعي وأحمد.

أما مالك فيقول لرجل من العراق جاء يذاكره الحديث: وهل بالعراق أحد يحسن أن يحدث إلا ذاك الواسطي؟ يعني هشميًا. وأما الليث بن سعد إمام مصر فكان يطلب إلى هشيم فيبعث بها إليه.

يقول أحمد: "كتب عن هشيم سنة تسع وسبعين ولزمناه سنة ثمانين وإحدى وثمانين وثنتين وثلاث. ومات في سنة ثلاث وثمانين. كتبنا عنه كتاب الحج نحوًا من ألف حديث وبعض التفسير وكتاب القضاء وكتبًا صغارًا أكثر من ثلاثة آلاف، وجاءنا موت حماد بن زيد ونحن على باب هشيم وهشيم يملي علينا كتاب الجنائز" كما يقول: "جاءنا نعيم بن حماد (٢٢٩) من مصر ونحن على باب هشيم نتذاكر المقطعات فقال: جمعتم حديث رسول الله ﷺ؟ فغنينا بها منذ يومئذ".

فأحمد بدأ يجمع الحديث في حياة أبي يوسف وهشيم أي قبل أن يبلغ العشرين من العمر.

ولم يحل لزوم أحمد لهشيم دون أن يسمع الآخرين ومنهم عبد المؤمن العبسي. جلس إليه في بغداد سنة ١٨٢ كما رحل في العام ذاته إلى الكوفة حيث نواة فقه العراق واتجاهاته.

وأمسى أحمد حجة في حديث هشيم فنقله إلى الأئمة. ذلك بعض المعنى في قول عبد الله بن أحمد بن حنبل: كل شيء في كتب الشافعي: حدثني الثقة عن هشيم وعن غيره فهو أبى.

---

(١٦) نسبة إلى واسط بلدة بناها الحجاج وكان يشير أبو هشيم طباخًا للحجاج.

وضاقت بغداد بأحمد بعد أن رحل أبو يوسف وهشيم عن الدنيا – في عام واحد. فأخذ يجوب الآفاق. سفرة وراء سفرة. لا يدع عظيمًا في العلم إلا وعى علمه.

دخل البصرة خمس دخلات. ففيها المحدثون الفحول والعباقرة من علماء اللغة، وكانت أولى دخلاته سنة ١٨٦، وفيها لزم يحيى بن سعيد القطان أشهرًا ستة وأجله سعيد، حتى إذا تناهى إليه أنه خرج إلى واسط سأل الناس: أي شيء يصنع أحمد بواسط.؟ فقالوا مقيم على يزيد بن هارون (١١٨ – ٢٠٦) فعجب يحبى بن سعيد لأن أحمد عنده أعلم من يزيد.

هكذا بايع محدث البصرة الكبيرة لأحمد وهو لم يبلغ الثالثة والعشرين بعد، وأحمد مستطرد لجمع الحديث من مظانه، وعند يزيد فضل كثير وله مكانته في الأمة.. ويزيد نفسه يقول: أحفظ أربعة وعشرين ألف حديث إسناد ولا فخر. ويقول يحيى بن معين: "كان بالعراق أربعة من الحفاظ، شيخان وكهلان – أما الشيخان فهشيم ويزيد بن ذريع، وأما الكهلان فوكيع ويزيد بن هارون، وأحفظ الكهلين يزيد بن هارون":

وعلى الأربعة تعلم أحمد.

كان يزيد بن هارون عالمًا حقًا لا بأس إن هو تعلم من تلميذه – سأله سؤالاً في الفقه فوجد أحمد الجواب في الحديث نفسه، فنصه له. وستمسي هذه الطريقة جماع منهاج أحمد بعد إذ يضع الأصول لمذهبه. سأله يزيد عن العارية وضمان ردها.

قال أحمد: العارية مؤداة.

قال يزيد: أخبرنا الحجاج عن الحكم قال: ليست بمضمونة.

قال أحمد: استعرا النبي ﷺ من صفوان بن أمية درعًا فقال له صفوان عارية مؤداة – فقال عليه الصلاة والسلام: "العارية مؤداة".

وصار الشيخ إلى رأي تلميذه.

ويروي قضاة المأمون يحيى بن أكثم: قال لنا المأمون: لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت القول بخلق القرآن فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين ومن يزيد حتى يتقي؟ فقال: ويحك – إني لا أتقيه لأن له سلطانًا ولكن أخاف إن أظهرته فيرد علي فيختلف الناس وتكون فتنة، وأنا أكره الفتنة.

وكان يزيد يحلف أن من قال: "إن القرآن مخلوق" كافر.

وسنرى، بعد، استمرار موقف يزيد بن هارون مع المأمون في صنيع أحمد مع المأمون.

وسنرى كذلك تأثر أحمد بيزيد بن ذريع (١٨١) وكان يسميه ريحانة البصرة، ورث أربعين بدرة – قيمتها خمسمائة ألف درهم – من أبيه وكان واليًا على الأبلة فلم يأخذ منها شيئًا وآثر أن يأكل من عمل الخوص بيده.

أما رابع الأربعة الكبار من حفاظ العراق فهو وكيع بن الجراح وفيه جماع مزاياهم. وهو معلم للورع والحديث معًا. وتلميذ في مدرسة أبي حنيفة وأبي يوسف وزفر.

يحكي يحيى بن أكثم أنه صحبه في الغدو والسفر، فرآه يصوم الدهر ويختم القرآن كل ليلة ولا ينام حتى يقرأ ثلثه، ثم يقول في آخر الليل.

كان أبوه على بيت المال، ولما أورثته أمة مائة ألف فرقها، وكان لا يسأل أحدًا أن يعينه على وضوئه. يسرد الصوم ويقوم الليل، وفيه يقول يحيى بن معين "وكيع في زمانه والأوزاعي في زمانه" ويقول (أصحاب الحديث أربعة وكيع ويعلي بن عبيد والقعنبي وأحمد بن حنبل).

وأحمد يقول في شيخه: "ما رأيت مثل وكيع في العلم والحفظ والإسناد مع خشوع وورع".

ويجلس أحمد بين يدي وكيع فلا يتكلم إجلالاً له. فينهونه على أنه أثير عند الشيخ فما له لا يتكلم؟ فيجيب: وإن كان يكرمني فينبغي أن أجله! ويتذاكر أن من أول الليل حتى تقول لهما لجارية طلع الكوكب. ويتبادلان التقدير، يقول وكيع: ما قدم الكوفة مثل أحمد بن حنبل ويقول إذ يسأل عن خارجة بن مصعب: لست أحدث عنه – نهاني أحمد بن حنبل أن أحدث عنه.

* * *

وأشياخ أحمد الآخرون كثيرون، منهم أبو نعيم، الفضل بن دكين (١٣٠– ٢٢١) كان غاية في الإتقان والحفظ – ولما سئل في محنة خلق القرآن قال: أدركت، ثلثمائة شيخ كلهم يقولون إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وإنما قال هذا قوم من أهل البدع. ثم أخذ زره وقطعه وقال: "رأسي علي أهون من زري هذا" وفيه يقول أحمد: شيخان يتكلمون فيهما ويذكرونهما، وكنا تلقى في أمرهما ما الله به عليم، قاما لله في خلق القرآن بأمر لم يقم به أحد أو كثير أحد، مثلما قام به عفان (بن مسلم الصفار) وأبو نعيم الفضل بن دكين.

ومنهم أبو عمرو الشيباني (اسحق بن عمران ٢٠٦). قالوا كان عنده من العلم أضعاف ما كان عند أبي عبيدة عالم اللغة – تأدب عليه أحياء كثيرة في بني شيبان فنسب إليهم بالولاء والمجاورة والتعليم. والبعض يقول إنه نسب إلى يزيد الشيباني لأن أبا عمرو كان يؤدب ولد الرشيد الذين كانوا في حجر يزيد، وكان رواية أدب واسع العلم بالحديث.

كتب أحمد كثيرًا من أمالي أبي عمرو ولزم مجلسه وإن قصر به عند العامة أنه كان يشرب النبيذ على مذهب أهل الكوفة.

ومنهم أبو معاوية الضرير محمد بن حازم (١١٣٣ – ١٩٥) كان وليا العهد وخليفتا الغد، الأمين والمأمون، يأخذان بيده بأمر من الخليفة القائم هارون الرشيد.

قال يومًا: يا أبا معاوية هممت أنه من ثبت خلافه عليّ فعلت به وفعلت به، وقال أبو معاوية إن إذنت لي تكلمت. قال تكلم – فقال: يا أمير المؤمنين، قالت تيم (قبيلة أبي بكر) منا خليفة رسول الله وقالت: عدي (قبيلة عمر) منا خليفة رسول الله وقالت أمية (قبيلة عثمان) منا خليفة رسول الله – فأين حظكم من الخلافة يا بني هاشم؟ والله ما حطكم فيها إلا ابن أبي طالب.

فأثنى عليه الرشيد وقالك والله يا أبا معاوية لا يبلغني أن أحدًا لم يثبت خلافة على إلا فعلت به كذا وكذا.

كانت الأحاديث الكبار العالية عند أبي معاوية. قالوا فيه: هو أحسن المحدثين حديثًا. ولما سئل أحمد عنه وعن جرير قال: أبو معاوية أحب إلينا.

دار أحمد في الفلك العلمي بين شرق وغرب من أقصى الجنوب إلى الشمال لا يفتر. فهو عليم بأن الذين يبدءون لا يستمر منهم إلا قليل. والذين يستمرون لا يصل منهم إلا الأقلون.. يجمع الشخوص إلى الري ليسمع جرير بن عبد الحميد فتمنعه الضيقة فيقول وكأن المقال أنين "لو كان معي خمسون درهمًا لكنت خرجت.. فخرج بعض أصحابنا ولم يمكني الخروج لأنه لم يكن عندي شيء".

ويخرج إلى عبادان وفارس سنة ١٨٦ يستمع إلى حديث أبي الربيع ويختلف إلى البصرة جيئة وذهوبًا – فالبصرة مألف له – وفيها فوق من أسلفنا عبد الرحمن بن مهدي (١٩٨) وسليمان بن حرب (٢٢٤) وأبو داود الطيالسي (٢١٤) وأبو عاصم النبيل (٢١٢) وآخرون عندهم علم كثير. ويقصد إلى الرقة ليسمع من فياض بن محمد بن سنان، فإذا استقرت به النوى في بغداد دار بين الحلق يشتار جناها.

ويستخير الله فيرحل الرحلة القصوى فيخرج ماشيًا على قدميه إلى طرسوس يتعلم ويرابط في أقصى ثغور الشمال، فالرباط جهاد، وكأنما تدرب السماء أقدامه ليسير إليها كرة أخرى والأصفدة في يده، ليلقى على (المأمون) غضباته، فتسبقه إليه يد السماء.

وتتابع الخرجات إلى الكوفة والبصرة من بغداد، عواصم العلم الثلاث بالعراق، وثمة تشهد المجالس الفقهية فتى، في العشرينات، تحلو به الدنيا.

قال أبو عاصم النبيل (الضحاك بن مخلد) لتلاميذه يومًا: ألا تتفقهون؟ قالوا: فينا شاب سيجيء الساعة. فلما أقبل هتف به أبو عاصم تقدم. قال: أكره أن أتخطى الناس. قال الشيخ:

تلك أولى دلائل فقهه. أوسعوا له.

فأوسعوا.. حتى جلس بين يديه فألقى عليه المسائل واحدة بعد الأخرى ثم قال:

(هذا من دواب البحر) يعني إحدى العجائب.

وأصبح أبو عاصم يحكي عن نفسه وعن تلميذه: سمعت الناس يقولون جاء ابن حنبل جاء ابن حنبل. فقلت أروني ابن حنبل هذا. فقالوا له: يا هذا أما تنصفنا؟ قدمت بلدنا فلم تعرفنا نفسك فنكرمك ونأتي من حقك ما أنت له أهل. قال يا أبا عاصم إنك لتفعل، إنك لتحمل على نفسك وتحدث. قال: فرأيت له حياء وصدقًا.. ما أخلقه سيبلغ ما بلغ رجل.

وذات يوم سأل تلاميذه من تعدون اليوم للحديث ببغداد؟ قالوا ابني أبي شيبة – عثمان وأبا بكر – وذكروا آخرين. فتنفس أبو عاصم وقال: هاه... هاه... ما من أحد من هؤلاء إلا وقد جاءنا وقد رأينا. فما رأينا في القوم مثل ذلك الفتى أحمد بن حنبل.

وسليمان بن حرب – فقيه البصرة – يقول لمن يسأله: اسأل أحمد بن حنبل ما يقول، فإنه عندنا إمام.

وفي عهد الطلب هذا كان يحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأترابهما يدخلون على عفان بن مسلم الصفار ويدخل أحمد ويخرج فيقول عفان: هذا سوى أولئك.

وفي العهد ذاته وضح كره أحمد لطريقة المتكلمين. بقول زميل له: كنا بالمسجد وأصحاب الحديث يتذاكرون، وأحمد يومئذ شاب، إلا أنه المنظور إليه من بينهم، فجاء رجل من

بلخ فسأله شيئًا فأجابه فقلب الرجل الكلام ذاهبًا مذاهب المتكلمين فأشار أحمد بيده هكذا.. أي تنح.

* * *

وتلقى العلم عبادة. والعلم لا يعطيك بعضه إلا أن تعطيه كلك.

روى خلف بن هشام أن أحمد جاءه يسمع حديث أبي عوانة. فاجتهد خلف أن يرفعه فأبى وقال: لا أجلس إلا بين يديك. أمرنا أن نتواضع لمن نأخذ عنه العلم.

وروى قتيبة بن سعيد: قدمت بغداد وما لي همة إلا أن ألقى أحمد بن حنبل. فإذا هو قد جاءني مع يحيى بن معين فتذاكرنا. فقام أيضًا وجلس بين يدي. فقلت يا أبا عبد الله اجلس مكانك. فقال: لا تشتغل بي، إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه.

وسيعدد قتيبة الأئمة فيما بعد فيقول: لو أدرك أحمد بن حنبل عصر الثوري ومالك الأوزاعي والليث بن سعد لكان هو المتقدم. فيراجعه سامع بقوله: تضم أحمد إلى التابعين؟ فيجيب: إلى كبار التابعين.

وأمسى قتيبة يقول: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعرف أنه صاحب سنة وجماعة. ويقول: يموت أحمد وتظهر البدع. لولا أحمد لأحدثوا في الدين فسادًا.

ومن أخذ العلم على وجهه رئى أحمد ويحيى بن معين وزميلهما على بن المديني وآخرون خشعًا طوعًا قيامًا على أرجلهم، يستمعون الحديث من ابن شيخهم يحيى بن سعيد القطان – وهو مستند إلى أصل منارة المسجد بعد صلاة المغرب – لا يقول لأحد منهم أجلس، ولا هم يجلسون، إعظامًا لما يسمعون!

وكان سليمان بن الأشعث – أبو داود – من تلاميذ أحمد.. سمع أحمد منه حديثًا فاستحسنه وقال: هذا حديث غريب. ودخل وأخرج محبرة ورجاه أن يمليه عليه فأملاه.

ويوم يتخلى العالم عن التواضع يفقد جاذبية العلم، وهي الإقبال عليه أو الإقبال منه، ويوم يحسب العالم لنفسه مكانة أعلى من العلم لا تبقى له مكانة ولا علم. وإن بقيت لديه وسائل وصول أو مزاعم علم.

وسنقرأ، بعد، جواب أحمد وهو إمام للمسلمين عن أفضل الأعمال فيقول: طلب العلم لمن صحت نيته – فيسأل تلميذه: وأين تصحيح النية؟ فيجيبه: ينرى يتواضع فيه وينفي عنه الجهل.

ولكم تورع الإمام الأعظم وهو يتعلم من حجام بمكة.

قال أبو حنيفة: أخطأت في خمسة أبواب من المناسك فعلمنيها حجام بمكة، قلت بكم تحلق رأسي؟ قال: أعرابي أنت؟ النسك لا يشارط فيه، اجلس. فجلست منحرفًا. عن القبلة فأومأ إلي باستقبالها، وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر، فقال لي أدر شقك الأيمن من رأسك وجعل يحلق. وقال: كبر. فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب. فقال لي: أين تريد؟ فقلت: رحلى. قال: صل ركعتين ثم امض... قلت: ما ينبغي أن يكون هذا من مثل هذا الحجام إلا ومعه علم. فقلت: من أين لك ما رأيتك أمرتني؟ قال: رأيت عطاء بن رباح يصنع هذا.

وهذا إمام آخر – إمام أهل الظاهر – تأخذه العزة بالعلم فيعلمه الله الورع بحديث الحجامة، وهو الذي كان يجلس بين يديه أربعمائة طيلسان أخضر يتعلمون! جاءه فجلس إلى جانبه ذات يوم أبو يعقوب الشريطي، من علماء البصرة أبي تراب النخشبي (٢٤٥) الزاهد الأشهر، وعلى الشريطي خرقتان.. قال لدواد:

يا فتى سل ما بدا لك.

قال داود: وكأني غضبت منه فقلت أسألك عن الحجامة... فراح يعقوب يروى عن طريق "افطر الحاجم والمحجوم" ومن أرسله، ومن أسنده، ومن وقفه، ومن ذهب إليه من الفقهاء. ويروي طريق: "احتجام رسول الله ﷺ وإعطاء الحجام أجرة ولو كان حرامًا لم يعطه" ثم روى طريق: "إن النبي ﷺ احتجم بقرن" وذكر أحاديث صحيحة في الحجامة ثم ذكر الأحاديث المتوسطة مثل... ومثل.. وما أشبه ذلك وذكر الأحاديث مثل... ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطلب عن الحجامة في كل زمان..

ثم ختم كلامه بقوله: وأول ما ظهرت الحجامة بأصفهان.

قال داود – وهو الأصفهاني، من أصفهان – فقلت له: والله لاحقرت بعدك أحدًا أبدًا..

وإذا كان التواضع طريق العلم فخشية الله فحواه. ذلك قول يحيى بن كثير: "العالم من خشى الله"، والعلم لا يأنس إلا بقلب خاشع. وإجلال العالم وإجلال العلم صنوان، وأول ما بيده الناظر من جلال العالم وقار مجلسه.

وإذا كـان العلـم حفيًـا بـالمخبر لا بـالمظهر فالتمسـك بالوقـار وبـالمظهر ضـرورة يـوم يتحداهما صاحب غفلة أو مستهتر.

كتب يحيى بن معين [١٧] ثلاثين حديثًا لأبـي نعيم، وجعل على كل عشرة منها حديثًا ليس من حديثه، وجلس إليه يختبره، وكان معه شابان أحدهما أحمد – وأحمد ينهاه – ولما خرج أبو نعيم للقائهما أجلس أحمد إلى يمينه ويحيى إلى يساره فتنحنح يحيى وراح يقرأ.. حتى بلغ الحديث الحادي عشر فقال: ليس من حديثي فاضرب عليه، ثم قرأ عشرة.. فلما كان الحادي عشر أدرك أبو نعيم خبيئة الأمر، وأكفهر وجهه، وانقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى مغاضبًا وذراع أحمد في يده قال: أما هذا فأروع من أن يعمل مثل هذا.. وأما هذا – وأشار إلى الراوي وكان ثالث الثلاثة – فأقل من أن يفعل مثل هذا.. ولكن هذا من فعلك يا فاعل.. ثم أخرج رجله فرفس يحيى فرمى به.. قال يحيى، وقد سكن فوره: والله لرفسته أحب إلي..

* * *

عزم أحمد الحج ثم الخروج إلى عبد الرازق بن همام (٢١١) إمام صنعاء. وكانت تشد إليه الرحال من كل أقطار الإسلام. قيل فيه: "ما رحُل إلى أحد، يعد رسول الله ﷺ، ما رحل إلى عبد الرازق" وصادقه بمكة قال... فدخلنا وقمنا نطوف طواف الورود فإذا عبد الرازق في الطواف يطوف. وكان يحيى بن معين قد رآه وعرفه.. ثم جلس عبد الرازق فقضينا طوافنا وجئنا وصلينا. فقام يحيى بن معين فجاء إلى عبد الرازق فسلم عليه وقال: هذا أحمد بن حنبل أخوك. فقال: حياة الله وثبته، فإنه يبلغني عنه كل جميل. قال يحيى: نجيء إليك غدًا حتى نسمع منك. وقام عبد الرازق وانصرف. فوجد أحمد وجدًا شديدًا وقال ليحيى: لم أخذت على الشيخ موعدًا.؟ قال يحيى: لنسمع منه، قد أريحك الله مسيرة شهر، ورجوع شهر، والنفقة. قال أحمد: ما كان الله يراني وقد نويت نية لي أفسدها بما تقول.. نمضي لنسمع منه، فمضيا إلى صنعاء سنة ١٩٩، ولم يكن مع أحمد في هذه الرحلة مال، فرحل الرحلة كلها على قدميه، وكرى نفسه مع الحمالين حتى لا يستدين.

---

(١٧) خلف له أبوه معين بن عون المري وكان من كبار عمال الدولة خمسين ألف درهم. فأنفقها كلها على الحديث. وسيحصب أحمد في رحلة العمر وفي مضمار علم الحديث.. وفيه قول أحمد: كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فهو ليس بحديث.

obeikandl.com

ولما بلغ السفر غايته دخل عليه أحمد ويحيى وإسحق بن راهويه ومهنأ الشامي فوجده جالسًا. فأملي من فوره سبعين حديثًا، وقال مشيرًا إلى أحمد: لولا هذا ما حدثتكم.

وسيقول إمام صنعاء بعد: "ما رأيت أفقه من أحمد بن حنبل ولا أروع"، ويقول: "إن يعش هذا الرجل يكن خلفًا من العلماء...".

كان أحمد في الخامسة والثلاثين أو تزيد شيئًا، تسبقه إلى أقصى الجنوب الغربي من جزيرة العرب أنباء ورعه وإخلاصه وعلمه – ولما رجع إلى مكة فوجده أقرانه شاحب الوجه لما لقى في سفره هذا من النصب، قالوا لقد شققت على نفسك في خروجك إلى عبد الرازق. فقال ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرازق، كتبنا عنه حديث الزهري عن سالم عن عبد الله عن أبيه [١٨] وحديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.

واستفاد أحمد من عبد الرازق أمرًا آخر – أن كان عبد الرازق لا يحدث من حفظه، بل كان يراجع في صحف مكتوبة، فأصبح أحمد هو الآخر لا يحدث من حفظه وإنما يحدث من كتاب، وصار أحمد قدوة للعلماء في ذلك.

يقول علي بن المديني: ليس في أصحابنا أحفظ من أبي عبد الله (أحمد بن حنبل) بلغني أنه لا يحدث إلا من كتاب، ولنا فيه أسوة.

ولقد يطول البحث عن الحديث ولكن الوقت أهون من أن يضن به على الحديث فهذا العلم دين كما يقول مالك سأل أحمد سائل من مرو فكلف ابنه عبد الله أن يحضر كتاب الفوائد ليبحث عن الحديث فلم يجده عبد الله فقام أحمد... وأحضر الكتاب. وقعد يطلب الحديث في مجموعة الأجزاء.

ولم يضع أحمد في سفرته إلى اليمين فرصة السماع من إبراهيم بن عقيل. قال: "وكان عسرًا لا يوصل إليه فأقمت على بابه باليمن يومًا أو يومين حتى وصلت إليه فحدثني بحديثين وكانت عنده أحاديث وهب عن جابر فلم أقدر أن أسمعها من غيره، ولم يحدثنا عنها إسماعيل بن عبد الكريم لأنه كان حيًا. فلم أسمعها من أحد".

---

(١٨) قيل إن المختار أنه لا يجزم في إسناد أنه أصح الأسانيد مطلقًا وقيل أصحها الزهري عن سالم عن أبيه (عبد الله بن عمر) وقيل ابن سيرين عن عبيده عن علي وقيل الأعمش عن علقمة من ابن مسعود. وقيل الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي. وقيل مالك عن نافع عن ابن عمر.

وإنما يكون الإخلاص للعلم وضبطه بسماع من الأستاذ، ما دامت به حياة، لا بسماع التلميذ من التلميذ، فزيادة الرواة تعرض للزلل، والعلو في الإسناد علو في مصادر العلم والاستنباط، وتلقيح لألباب التلاميذ بأفهام أشياخهم.

رآه أحمد بن منيع (١٦٠ – ٢٤٤) راجعًا من الكوفة، وقد دخلها بضع عشرة دخلة، وبيده خريطة فيها كتب، فأخذ بيده فقال: مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة.. إلى متى؟ إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه؟ فسكت. ثم قال: ستين ألف؟ فسكت. فاستطرد يقول مائلة ألف؟ قال أحمد بن حنبل حينئذ يعرف شيئًا. قال أحمد ابن منيع – وهو يروي الواقعة لحفيده – فنظرنا: فإذا أحمد كتب ثلثمائة ألف عن بهز ابن أسد وعفان وربما أضاف روح بن عبادة.

وعلم أحمد درس الرحلة لتلاميذه فعلموها أبناءهم وتلاميذهم. ومن هؤلاء أبو حاتم الرازي (٢٧٧) ظل يحصى ما يمشيه في سبيل العلم حتى بلغ ألف فرسخ فرأى ألا نهاية للإحصاء فكف عنه.

وسيرى الرائي أحمد وفي يده المحبرة. فيقول له: يا أبا عبد الله.... هذا وأنت إمام المسلمين! فيقول: "مع المحبرة إلى المقبرة". وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. والإسناد خصيصة الأمة إجلالاً منها لمصادر فكرها.

وبهذا استحبت الرحلة لتحري العلم عمومًا والنصوص خصوصًا. يقول أبو الدرداء: "لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحدًا يفتحها على ألا ببرك الغماد لرحلت إليه". وبرك الغماد مضرب المثل في بعد الشقة والمخاطرة، قال سعد بن معاذ للرسول عليه الصلاة والسلام: "لو اعترضت بنا البحر لخضناه. ولو قصدت بنا برك الغماد لقصدناه".

ومثل قول أبي الدرداء صنيع جابر بن عبد الله إذ اشترى بعيرًا فارتحله للتحقق من حديث واحد في مصر عند عقبة بن عامر الجهني قبل أن يموت عقبة أو يموت جابر. وصنيع أبي أيوب الأنصاري من أجل حديث واحد أيضًا بالرحلة إلى مصر يسأل عقبة بن عامر أيضًا... فقدم إلى منزل مسلمة بن مخلد أمير مصر وخرج إليه عقبة فعانقه وقال له:

"ما جاء بك يا أبا أيوب؟" قال حديث سمعته من رسول الله في ستر المؤمن قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من ستر مؤمنًا في الدنيا على كربته سترة الله يوم القيامة". فانصرف أبو أيوب من فوره بعد أن سمع الحديث إلى راحلته فركبها راجعًا.

وأبو سعيد يرحل في حرف ومسروق يرحل في حرف.. وسعيد بن المسيب، سيد التابعين بالمدينة، يقول: "إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد". والشعبي إمام المحدثين بالعراق ويقول فيما هو أدنى شأنًا: لو أن رجلاً سافر من أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت سفره ضاع.

ولما سئل أحمد عن تلقي العلم عن رجل مقيم ببلد الطالب لكنه ينزل في الحديث درجة قال: "ليس هكذا يطلب العلم، هكذا مات العلم، إنما يؤخذ العلم عن الأكابر".

اللغة:

اجتمع لأحمد من رحلاته ودراساته علمان أساسيان للقرآن والسنة وللفقه. هما اللغة والتاريخ.

كانت البصرة مدرسة اللغة ومربدها على مبعدة ثلاثة أميال منها تنوخ فيه الجمال ويتناشد فيه الشعراء الأشعار في أيام معلومة. فصار منتدى الفصاحة في الأمة العربية كلها حيث يتعلم البلغاء والعلماء فصاحة البادية وغرائب اللغة.

وكان البصريون أسبق العرب إلى الاهتمام بالنحو اللغة. والعرب تفضل أعراب البصرة لقربهم من البادية الفصيحة.. وأساتذة اللغة الأولون فحول البصرة، منهم أبو الأسود الدؤلي (٦٧) تلميذ أمير المؤمنين علي، والخليل بن أحمد (١٧٥)، وسيبوية (١٨٠)، والأصمعي (٢١٢)، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (٢١٢)، وأبو زيد الأنصاري سعيد بن أوس (٢١٥)، تلميذ أبي عمرو بن العلاء، وبهم سبقت البصرة الكوفة في الاهتمام باللغة بنحو مائة عام. والبلدتان فرسا رهان.

كان أسبق السابقين، بعد أبي الأسود، أبا عمرو بن العلاء (١٥٤) وهو حجة وثقة الجميع في عربية الكلام لعلمه بلغات القبائل بالسماع لا بالنقل من الصحف.. وله قراءة خاصة بالقرآن، وهو القائل: "ما انتهى إليكم من شعر العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير"، وهو يعتبر أول جامع للعربية الأصلية من أفواه العرب.

وفي أبن العلاء قول ابن خلكان: "كانت لي كتب كتبها عن العرب وقد ملأت بيتًا إلى قريب من السقف".

وأحمد بن حنبل يقول: "كتبت من العربية أكثر مما كتب أبو عمرو بن العلاء"، ومن يكتب أكثر من أبي عمرو يبلغ أرفع الرتب. ومن ثم نصعت عبارة أحمد، ووجز كلامه، واتصل

بالأصول، وأضاف إلى علمه فروسية الأدب العالمي لبلغاء العرب وتراءت لمحاتها في كثير من مواقفه ووقائع حياته.

وبنو شيبان من دعائم البصرة يقيمون فيها أو يختطون على مقربة منها ومن مربدها، منهم مؤرخ بن عمرو السدوسي، قدم من البادية ولا معرفة له بالقياس بل كانت معرفته بالعربية قريحة... وأول ما تعلم القياس في حلقة أبي زيد الأنصاري. يقول الأخفش "سألني يحيى بن أكثم عن الثقة المقدم من غلمان الحليل بن أحمد: من هو؟ فقلت النضر بن شميل وسيبويه ومؤرج السدوسي"... له كتاب في غريب القرآن رواه عنه أهل مرو، وأسند الحديث عن شعبة بن الحجاج وأبي عمرو بن العلاء وغيرهما.

ومنهم محمد بن حبيب وابنه أبو عثمان المازني.

وكان أبو عثمان المازني (٢٣٨) يدخل على الواثق والمتوكل – فيه يقول بكار بن قتيبة: "ما رأيت نحويًا يشبه الفقهاء إلا حبان بن هرمة وأبا عثمان المازني"، وهو تلميذ أبي زيد. وفيه يقول المبرد: "لم يكن بعد سيبويه أعلم من أبي عثمان بالنحو".

أشخصه الواثق من البصرة لتحقيق بيت من الشعر اضطرب فيه خبراء الحاشية هو:

أظلوم: إن مصابكم رجلا

أهدي السلام تحيةً، ظلم

فقال الوجه النصب: "يقصد رجلاً" لأن مصابكم يعني إصابتكم وعارضه اليزيدي فقال أبو عثمان: "الدليل أن الكلام معلق إلى أن تقول (ظلم) فيتم" [١٩].

ومنهم أبو عمرو الشيباني يسمى الشيباني – على الراجح – لأنه علم في أحياء من بني شيبان، وهو من أوسع المحدثين علمًا باللغة والأدب وأحفظهم لدواوين العرب. جمع أشعار أكثر

---

(١٩) والبيت واحد من ثلاثة أبيات من مأثورات بني شيبان عن أدبيهم مؤرج في كتابه: (حذف من نسب قريش) منسوبة للحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي يقولها في ظليمة بنت خالد بن أسيد وهو من سادات بني أمية والبيتان الباقيان:

خصمانة قلق موشحها رؤد الشباب غلابها عظم

أعفو وأصفح عن جهالتها وإذا جهلت فما لها حلم

من ثمانين قبيلة منها بنو شيبان. وكان كلما جمع أشعار قبيلة حمد الله بكتابة مصحف وجعله في مسجد الكوفة حتى كتب نيفًا وثمانين مصحفًا.

ولأبي عمرو كتاب في "غريب الحديث" يرويه عنه أحمد.

وشعر بني شيبان وبني ذهل، والشعر فيهم، دواوين ضخام، لا يقاربها إلا قليل من أدب العرب، وعمران بن حطان وحده مدرسة كاملة، وعلى ذلك لم يكن تعدد رحلات أحمد إلى البصرة والكوفة في عهد الطلب لسماع الحديث وحده من علمائها. فاللغة أساس فهم القرآن والحديث، وهما من أصولها، ومن ثمة تعددت تآليف علماء اللغة في غريبهما وتفسيرهما.

ولئن لم يرو عن احمد شعر غزير كما روى عن الشافعي، إن الشافعي إمام الأئمة في اللغة يصف أحمد بأنه: "إمام في اللغة". وهي شهادة لم يظفر بها من الشافعي أحد لا من الأدباء ولا من العلماء. ولما دأب على غشيان حلقة أحمد من علماء اللغة أبو عبيد القاسم بن سلام وثعلب وقطرب كانوا أدلة على غزارة ما يردد فيها من اللغة والأدب.

ولقد احتاج الأصمعي، وهو أحد المصادر الأساسية للغة العربية وآدابها إلى أن يوثقه أحمد في روايته للحديث، كمثل ما شهد الشافعي للأصمعي، فالشافعي يشهد للغته وأدبه وأحمد يشهد لحديثه.

السيرة:

وإمامة أحمد في السيرة تتصدر إمامته في اللغة بمثل ما يتفوق الخاص على العام ويتميز المركز والمتخصص. والسيرة فرع من فروع المعرفة في فرع أحمد من بني شيبان. يقول ابن سيرين في دغفل بن حنظلة: "كان عالمًا كبيرًا لكنه اغتلبه النسب" وكان مؤرخ نسابة كبيرًا لكنه اغتلبه الأدب. اشتهر عنه كتابان في السير أحدهما: "جماهير القبائل" وثانيهما "حذف من نسب قريش"، والأخير أقدم كتاب وصل إلينا مما ألفه العرب في الأنساب. ومؤرج معاصر للنسابين الأوائل وفيهم سحيم بن حفص (١٩٠) وهشام بن محمد الكلبي (٢٠٤).

وأحمد فيما درس من حديث كان يدرس السيرة. فالحياة اليومية والمغازي عماد رواية الحديث، حتى ألفت للسيرة الكتب الخاصة، أو أفردت لها أبواب خاصة في جوامع الحديث، كمثل ما سيفرد لها أحمد في المسند كتاب المغازي فيتابعه بعده أصحاب الصحاح.

ومن السابقين في علم المغازي والسير أولاد الصحابة مثل إبان بن عثمان وعروة بن الزبير شيخي رواة المغازي بالمدينة.

وفي مدرسة المدينة نشأ محمد بن اسحق (٨٥ – ١٥٢). وابن اسحق يروي عن الزهري ونافع شيخي ملك، وحمل لواء السيرة بعد روايته بالمدينة إبراهيم بن سعد (١٠٨ – ١٨٤) حفيد عبد الرحمن بن عوف، وعن هذه الطريق اجتمعت لأحمد مغازي بن اسحق وسبعة عشر ألف حديث سوى المغازي.

كان إبراهيم على قضاء المدينة، ثم ولى بيت المال للرشيد في آخر العمر فتلمذ له عندئذ أحمد بن حنبل وكتب عنه في ألواح.

ولما هوجم ابن اسحق من هشام بن عروة لتحديث ابن اسحق عن زوجة هشام بقوله: "ألعدو الله الكذاب! يروي عن امرأتي! من أين رآها؟" دافع أحمد عنه بقوله: "وما ينكر هشام؟ لعله جاء فاستأذن عليها فأذنت له وهو لا يعلم".

وكانت فاطمة بنت المنذر زوجة هشام تكبر ابن اسحق بسبعة وثلاثين عامًا فهو مولود سنة ٨٥ وهي مولودة سنة ٤٨ وكان من حق أحمد أن يستشهد بتقدير الشافعي له بقوله: "من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن اسحق"، ومع ذلك ينصف أحمد الحقيقة بنقذه لابن إسحق فيقول: "كان رجلاً يشتهي الحديث فيأخذ كتب الناس فيضعها في كتبه".

أما سيرة الواقدي محمد بن عمر (١٣٠ – ٢٠٩) فكانت بين يدي أحمد، مذ وفد محمد بن سعد (١٦٨ – ٢٣٠) كاتب الواقدي على بغداد. فكان أحمد يرسل حنبل ابن عمه إلى ابن سعد يأخذ منها جزأين جزأين كلما أتمهما استبدل بهما سواهما. والمحدثون على عدالة ابن سعد. وأحمد يثني على الواقدي بقوله: "إنه بصير بالمغازي" وكتابه المغازي مروي عن خمسة وعشرين شيخًا ليس فيهم ابن اسحق، وإن هو استخدم تآليفه.

هكذا آلت علوم السيرة إلى أحمد من كل طرفها. وأتيح له أن يدرس كل علم على شيوخه العظماء، في العصر وفي كل عصر، وكان باقيًا أن يدرس الفقه على أعلم الفقهاء ليتم له تلقي العلم من أعلى قممه، وهي ظاهرة في تعليم أحمد لا تظهر في غيره إلا أن يكون الشافعي لتلقيه على مالك. وأحمد يفوق الشافعي في ذلك، بتلقيه على الشافعي ذاته، وبطول دراساته.. وببلوغه عن طريق الشافعي صميم فكر مالك: الاتباع الكامل.

مع الشافعي:

كان طبيعيًا أن تتوالى رحلات أحمد إلى الحجاز حيث قبلة المسلمين بمكة وقلعة المحدثين بالمدينة، وأن تبدأ لرحلات سنة ١٨٧ في العام التالي لأول خرجة له من العراق بعد سنوات أنفقها في طلب العلم، وفي مكة أظفره الله بأكثر مما تمناه. كان يتمنى لقاء مالك بن أنس بالمدينة لولا أن مالكًا مات سنة ١٧٩ فأخلف الله عليه – كما قال بعد – سفيان بن عيينة (١٩٦) محدث مكة العظيم في النصف الثاني من القرن وأول أساتذة الشافعي في الحديث، كما أخلف عليه الشافعي.

كان أحمد يدور بين حلق المسجد الحرام – فإذا بحلقة لم يكد ينقضي على قيامها عامان على مقربة من حلقة سفيان، يتوسطها فتى في الثلاثينات من حياته. ليست العربية الفصحى فخمة أو جليلة في فم فخامتها وجلالتها في فمه، وهو خطيب وشاعر وأديب، أما عباراته فتجيش منها الأفكار الكبار جيشان الماء من ينابيعه، وأحمد خبير ببلاغة العرب الخلصاء.

وصاحب الحلقة لا يحدث كالمحدثين الذين ألفهم أحمد، وإنما يتكلم في الفقه الذي لا تفيض فيه حلقهم، ولا يتكلم كهيئة أصحاب الآراء الذين دانت بغداد لهم ونفر أحمد منهم، ولكن كهيئة أصحاب الحديث، بالقرآن والسنة، يغلغل النظر في نصوصهما ويستخرج الحكم من أصولهما، بالاستنباط العميق والاستدلال الدقيق. كل أولئك مع إحاطة بفقه الدين واللغة لم يشهد أحمد لهما في كل تطوافه الفعلي أو الفكري نظائر.

وصاحب الحلقة عليم بكتب الرأي كمثل أحمد، وعليم بحديث مكة والمدينة الذي يقصد قصده أحمد، وله الحجج القاهرة لأهل الأهواء والمتكلمين. وفي أقواله تصويبات لأقوال مدرسة أبي حنيفة، بل مدرسة المدينة، وغيرهم، ممن كان أحمد يتمنى لو وجد من يتصدى لتصويبهم، فإذا به يصيب في كل مجلس يجلسه إلى صاحب الحلقة صبيًا ينهل من السماء العالية، كله قرآن وسنة، وهما المجال الحيوي لرجل جعل جمع السنن مهمة حياته لقيمتها الذاتية ولقيمتها كأساس للفقه، وهذا الغرض الأخير هو الغذاء اليومي يقدمه صاحب الحلقة للوافدين على البيت العتيق، في بلاغة ودقة وقوة جدل لا تقهر.

وثمة أمران آخران في صاحب الحلقة ينفذان إلى شغاف القلوب: أولهما أن صاحب الحلقة قرشي ينتصر للسنة بقوة آسرة من العمق والإحاطة فيذكر أحمد قول الرسول عليه السلام "... عالم قريش يملأ طباق الأرض علمًا"، وثانيهما أنه ابن عم الرسول ذاته، فأي مجد بدمه وأي حب هو أحرى به.

وبالحب والعلم دار أحمد أعوامًا في فلك الشافعي ثم دار منذئذ وحده.

وضع الشافعي أقدام ابن حنبل في طريق قدره وهو في الثالثة والعشرين من عمره، قد اجتمعت له علوم الحديث من شتى الأصقاع وتهيأ للإحاطة الكاملة بمذهب الإمام الثالث للمسلمين، ليبلغ بالعلم أوجًا آخر بتوسيع دائرة تلقي الحديث، ثم توسيع العمل به، ولينتهي بطريقته وأصوله إلى تحقيق الغاية التي أعلنها الشافعي.

"إنه ليس تنزل بالمسلمين نازلة إلا وفي كتاب الله حكم لها، وعلى المجتهد طلبه".

كان أشياخ أحمد بين تلاميذ لأبي حنيفة كأبي يوسف، وبين مفتين بآراء أبي حنيفة كوكيع ويحيى بن سعد القطان، وكان منهم من يحيلون على آراء هؤلاء كسفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ويزيد بن هارون، بل كان يحيى بن معين زميل الحياة لأحمد يفتي في الفقه بقول أبي حنيفة، وكذلك كان كثير من الزهاد، فإن تعجب فعجب أن يحتفظ أحمد في بكورا لصبا باستقلاله الفقي كالزورق الشرود في هذا البحر الحنفي المحيط، وأن يكرر أحمد نفسه فيحتفظ باستقلاله الفقي كالزورق الشرود في هذا البحر الحنفي المحيط، وأن يكرر أحمد نفسه فيحتفظ باستقلاله عن الشافعي ذاته، مع إعجابه الذي ليس له حدود وصيرورته حجة في مذهبه، وهو ذروة المنهج العلمي في مدرسة مالك! وإنما احتفظ أحمد باستقلاله ليقدم للمسلمين طريقة جديدة يتمثل فيها الإبراز العلمي والعملي، الجلي، للتعويل على السنة.

* * *

روى صاحب لأحمد: حججت مع أحمد بن حنبل ونزلت معه في مكان واحد وخرج وخرجت أنا بعده.. فلما صليت الصبح درت المسجد فجئت مجلس سفيان بن عيينة، وكنت أدور مجلسًا مجلسًا طلبًا لأبي عبد الله (أحمد بن حنبل) فوجدته عند شاب أعرابي عليه ثياب مصبوغة وعلى رأسه جمة (شعر الناصية المتساقط على الجانبين) فزاحمته حتى قعدت عند أحمد بن حنبل فقلت: يا أبا عبد الله أتركت ابن عيينة عنده من الزهري وعمرو بن دينار وزياد بن علاقة ما الله بن عليم...؟ قال لي: اسكت.. فإنه إن فاتك حديث بعلو تجده بنزول.. لا يضرك في دينك ولا في عقلك؟ وإن فاتك أمر هذا الفتى لا تجده إلى يوم القيامة. ما رأيت أحدًا أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي.

قلت من هذا؟ قال محمد بن إدريس الشافعي.

وهذه الكلمات تشير إلى كثير. يهمنا منه الآن أن أحمد، وقد كان التفتيش عن الحديث همه، ومن أجله يستعذب البرح والشدة، يرى أن جمع الحديث متدارك أما الشافعي فلا يتكرر. وأن الفقه الملتمس عنده هو فقه الكتاب والسنة، وهذان غاية الغايات من سعي أحمد.

وتتابعت الرحلات إلى الحجاز في سنوات ١٨٧، ١٩١، ١٩٦. وفي سنة ١٩٧ أقام حتى خرج سنة ١٩٨ إذ خرج الشافعي من مكة إلى بغداد في العام ذاته. ليقيم أشهرًا فيها ثم يبرحها سنة ١٩٩ إلى الفسطاط، وكان الشافعي سنة ١٩٥ قد مد إقامته بالعراق عامين!! فهذه بضع عشرة سنة جلس في أثناءها أحمد إلى الشافعي سنوات متصلة أو دورات منفصلة في جواز زمزم بمكة أو دار السلام، بغداد.

وفي العراق كان أدأب التلاميذ وأدومهم وأسبقهم إلى الحلقة وأطولهم صحبة. يقول يعقوب بن اسحق: "كنا نأتي الشافعي فنجد أحمد قد سبقنا وما زال معنا حتى كتب كتب الشافعي كلها وكان يجيء إذ يرتفع النهار ويبقى معه"، والزعفراني يقول: "ما قرأت على الشافعي من الكتب إلا وأحمد بن حنبل شاهد"، وكان الزعفراني هو الذي يقرأ كتب الشافعي ببغداد.

وهو يروي أن أحمد قال له: إذا رأيت أبا عبد الله الشافعي قد خلا فأعلمني. وكان يجيء ارتفاع النهار قيبقى معه.

والذي صنعه الشافعي ببغداد كان أعظم صنيع له وإن جوده أو كرر كتابته بالفسطاط. فهو قد فرض هناك طريقته على أئمة الحلق من أئمة الرأي والكلام ونصر أصحاب الحديث عليهم ثم وضع كتابه الحجة أو المبسوط هنالك متضمنًا مذهبه.

فأحمد صاحب الشافعي في صراعه الفكري وحلبات جدله مع مذاهب العراقيين ذودًا عن السنة. وعاشرة وهو يضع كتبه ويحرر مذهبه. وبهذا كان أثبت التلاميذ في مذهبه وأعلمهم بجدله وفقهه، وفيهم من أئمة المذاهب أبو ثور، ومن عظماء الفقهاء الكرابيسي والزعفراني وسليمان الهاشمي، وأحاط كذلك بما كتبه في مصر فكان يوصي به الآخرين، وعلى ذلك بقيت نسخة الرسالة الجديدة التي وضعها الشافعي بمصر في خزانة أحمد حتى آخر أيام حياته.

روى عبد الملك حفيد ميمون بن مهران عن أحمد قوله: "لم أنظر في كتاب أحد ممن وضع كتب الفقه غير الشافعي"، وروى أن أحمد قال له: لم لا تنظر فيها؟ وذكر له كتاب "الرسالة" فقدمه من بين كتبه فقال عبد الملك: بم ذاك يا أبا عبد الله ونحن مشاغيل بالحديث؟

وربما أفاد هذا أن أحمد لم يقرأ بعد لقاء الشافعي كتب فقه إلا كتبه. إذ هو قرأ كتب أبي يوسف في بداية عهد الطلب وأحاط بكتب محمد – وكان كتاب الرسالة جديرًا بالتقديم من بين كتب الشافعي لما لها من أثر في بيان أصول فقه الإسلام وفي المنهج الفكري الإسلامي كله، فالرسالة واضعة علم الأصول وفيها مفاتيح الأدلة.

يقول الشافعي: "كلما رأيت رجلاً من أصحاب الحديث كأني رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ"، وهذا الشعور والتعبير ينقل إلينا مقدار ما أجل ورع تلميذه وعلمه. كان يقول له: "يا أبا عبد الله، أنتم أعلم بالأخبار منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه، كوفيًا كان أو بصريًا أو شاميًا" – فلقد كن عند أحمد أحاديث الأقطار، أما حديث الجاز فكان عند الشافعي فلم يحتج إليه عند أحمد، كما كان أحمد بالحجاز يبحث عن حديث الحجاز. فالشافعي قد جعل أحمد مرجعه وأصبح أحمد هو المعني بكلمة "الثقة" إذ وردت في حديث الشافعي. يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل: "إذا وجدت الشافعي يقول في كتاب حدثني الثقة أو أخبرني الثقة فهو أبي"، ومسلم أن الشافعي روى عن احمد وإن لم يسمه. وأنه كان يسأل أحمد في الحلقة: أهذا قوي محفوظ؟ فإذا قال نعم جعله الشافعي أصلاً وبنى عليه.

ومن الحنابلة مغالون يرون أن الشافعي أخذ من أحمد أكثر مما أعطاه، لكن مراجعة الشيخ تلميذه وقبول حديثه والتعويل عليه يرفع التلميذ درجة ويرفع الأستاذ.

والتحديث خصيصة التلميذ، لا يباريه فيها أحد، لكن الفقه خصوصية الأستاذ الذي لا يلحق بغباره فيها أحد، وكثيرًا ما كانت كتبه التي تحوي الأحاديث بعيدة عنه في سفراته كما صرح بذلك.

وأحمد هو الذي يقول لتلميذ أبي عثمان محمد بن الشافعي إذ يجيب سائلاً سأله ويلتفت إلى أبي عثمان ويقول: "هذا مما علمنا أبو عبد الله" يقصد الشافعي. ويذاكره أمر أبيه فيقول له: "يرحم الله أبا عبد الله ما أصلى صلاة إلا دعوت لخمسة هو أحدهم ما يتقدمه منهم أحد".

وإذ كانت أم أحمد وأبوه في الخمسة فإن أحمد يضع الشافعي في مكانه من الشكر والذكر العطر لا يساميها مقام آخر.

يقول أحمد بعد إذ صار إمامًا للمسلمين: "إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبرًا فيها بقول الشافعي، وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: عالم قريش يملأ طباق الأرض علمًا".. بل

يقول أحمد: "ما من أحد مس محبرة إلا وللشافعي في عنقه منه" ويقول: "لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث"، ويقول: "كان الفقه قفلاً على أهله حتى فتحه الله بالشافعي".

وسنسمع بعد شهادة تلميذة ابن أبي حاتم: ما رأيت أحمد يميل إلى أحد ميله إلى الشافعي.

ونسمع محمد بن مسلم بن وارة ينقل رأي أحمد في كلمة جامعة على وجازتها: سألت أحمد بن حنبل قلت ما ترى لي من الكتب أن أنظر فيه ليفتح لي الآثار؟ رأى مالك أو الثوري أو الأوزاعي؟ فقال: عليك بالشافعي فإنه أكثرهم صوابًا وأتبعهم للآثار... قلت لأحمد فما ترى في كتب الشافعي؟ التي عند العراقيين أحب إليك أو التي بمصر؟ قال عليك بالتي بمصر، فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك.

ويقول أحمد لعبد الملك بن عبد الحميد: لم لا تنظر في كتب الشافعي؟ فما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعي.

* * *

نقف عند هؤلاء من بين أساتذة أحمد ولكل منهم فيه أثر، وإن كان الشافعي يظهر في صفحات حياة أحمد فوق ما يظهر الآخرون، وهم عناوين واضحة للطراز الذي كان يتخذه لنفسه من الأساتذة [٢٠] مع الإنفاق السخي من الجهد البدني ومن أيام الحياة وإيثار التعمق في دراسة

---

(٢٠) هذه المشيخة من القوانين للحق والفعالين له يأتسون بأساتذة فكريين لهم ولأحمد، من السابقين، كابن أبي ذئب (١٥٩) وفي ابن أبي ذئب يقول أحمد: (كان رجلاً صالحًا يأمر بالمعروف وكان يشبه بسعيد بن المسيب) قيل له: هل خلف مثله ببلاده قال: ولا بغيرها.

ويرى عنه أحمد/ بلغ ابن أبي ذئب أن مالكًا يأخذ بحديث اليمين بالخيار فقال: يستتاب وإلا ضربت عنقه!! وما لك لم يرد الحديث ولكن تأويله على غير ما فهمه الآخرون.

سأل رجل أحمد: من أعلم – مالك أو ابن أبي ذئب. قال أ؛مد (ابن أبي ذئب في هذا أكبر من مالك. وابن أبي ذئب أصلح في دينه وأروع ورعًا وأقوم بالحق من مالك عند السلاطين، دخل على أبي جعفر فلم يهبه أن قال له الحق: قال الظلم فاش ببابك. وأبو جعفر أبو جعفر).

فأبو ذئب أستاذ فكري لأحمد وإن لم يره وقدوة لكل من يستهين من أجل الحق بالأذى، أو بالخطر. والشافعي يحكي الكثير عن أبي ذئب مثل قوله: كان محمد بن عجلان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فخطب والي المدينة يومًا فأطال الخطبة فلما نزل وصلى صاح به ابن عجلان: يا هذا اتق الله، تطيل ببابك وكلامك على

السنن والسير لدى كبار المتخصصين، على التوسع بمقاربة أبواب شتى من العلم أو الجلوس الباكر للتدريس. والسنة بحار عميقة الأغوار تترامى شواطئها إلى بعيد، وفيها فقه الإسلام وتاريخه وسياسته، وفيها تربية وأدب وأخبار رجال، وسنرى أحمد لما سبر أعماقها اتسع فقهه فتجارى مع المنهاج القرآني في أمان واطمئنان.

ولما استذرى بذرى الشافعي نشئ في مدرسة العظمة من صغره، فلم تعد فتوح الفكر الكبرى أمرًا غريبًا عليه ولا بعيدًا من متناوله. وستتابع الشهادات من الشافعي لتلميذه في الأعوام الأخيرة. فكان يذكره لتلاميذه الجدد في مصر وقد دخلها سنة ١٩٩، فحدثهم عن وعده له أن يقدم عليه بمصر، ولم يكن الأستاذ يعلم أن ضيق ذات يده ستمنعه الوفاء بوعده... ويذكر الشافعي للتلاميذ من عجائب الزمان تسليم مشيخة العلماء المطلق لأ حمد مع حداثة سنة فيقول: "ثلاثة من العلماء من عجائب الزمان: أعرابي لا يعرف كلمة وهو أبو ثور، وأعجمي لا يخطئ في كلمة وهو الحسن الزعفراني، وصغير كلما قال شيئًا صدقه الكبار: وهو أحمد بن حنبل".

وفي رواية أخرى للمزني قال: "رأيت ببغداد شابًا. إذ قال (حدثنا) قال الناس كلهم صدقت. قيل من هو؟ قال أحمد بن حنبل".

ويضيف الشافعي عن عقل أحمد وورعه: "ما رأيت أعقل من رجلين أحمد بن حنبل وسليمان بن داود الهاشمي"، وفي سليمان قول أحمد: "لو قيل لي اختر للأمة رجلاً استخلفه عليهم لاستخلفت سليمان بن داود الهاشمي" (٢٢١).

وأعلن الشافعي للأمة فيما يشبه الوصية مكانة أحمد في الذروة من كل فضيلة ترتجى فيمن يصلح للإمامة، يوم قال: "خرجت من بغداد وما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل".

منبر رسول الله. فأمر به فحبس فدخل ابن أبي ذئب على الوالي فقال له الوالي أما يكفي أن يأمر فيما بيننا وبينه فنصير إلى ما يأمرنا به حتى يصيح بنا على رءوس الناس فنستضعف. فقال ابن أبي ذئب: ابن عجلان أحمق. أحمق. هو يراك تأكل الحرام وتلبس الحرام. ويقول لا تطل بيانك وكلامك على منبر رسول الله ﷺ! !!

قال الوالي: وقد عرف أن الذي يشكوه أشفق به ممن يشكو إليه: أخرجوا ابن عجلان ما عليه من سبيل. وانظر الشافعي واضع الأصول وناصر السنة للمؤلف ص ١٨٨ طبعة دار المعارف.

ومن صدقه الناس كلهم فهو إمام، والشهادة له من إمام آخر للمسلمين هي، في حقيقة أمرها، إجازة للجلوس.

ولئن كان أحمد بهذه المؤهلات المسلمة من إمام العصر قد لقى آنئذ إجازة التدريس والاستخلاف، إنه كان عليمًا أن الشافعي وشيخه مالكًا قد لقيا من أشياخهما الإجازة في منتصف هذه السن، فجلس مالك قبل أن يجلس، بل يتورع فيزداد سنوات أخرى على سن الشافعي نفسه إذ جلس، فينفق سنوات خمسة جديدة بين حل وترحال ليوفي على الغاية.

لم يرد أحمد الحجاز بعد رحيل الشافعي، ولم يجلس للناس إلا عام أن صعدت روح الشافعي إلى بارئها في سنة ٢٠٤. كأنما كان يأبى أن يجلس وفي شيخه حياة، ولو كان كل منهما في قارة من القارات، أو فرضت عليه الجلوس فرضًا حاجة المسلمين إليه، وكان يحس أحاسيس الأمة في طورها الجديد، في عصر الرشيد وبنيه.

وفي صحف التاريخ دلائل تترى على أن شعاعًا فكريًا واحدًا، قويًا بالإخلاص، كفيل بتبديد الظلام مهما تكاثف، وأن رجلاً واحدًا صادقًا طالما حول الهزائم إلى انتصارات.

والممثل العظيم لضمير الإنسانية أعظم آثارًا من أن يمر غير مرئي، وإن كره الظهور. هو كالجبل العالي تراه العين كله أو بعضه وتسمع به آذان اللذين لم يروه. ولقد تبصر به الأفئدة غنيًا وهو فقير، وتسمعه الأنفس جهير الصخب وهو سكيب، بل هو يخدم البشرية بمجرد وجوده على الأرض، حتى إذا قضى نحبه ولدت لآرائه حياة جديدة.

ولقد طالما انتصر البطل بعد موته.

وكان انتصار الشافعي بأحمد نصرًا مؤزرًا لهما، فحيى الشافعي في أحمد. ونصرًا للأمة، فظفرت بمنهاج جديد يسد حاجاتها كافة، بالرجوع إلى القرآن والسنة، فهما اللذان صنعا خير أمة أخرجت للناس، والأمم تتقدم أو تتأخر بالتزام سبب وجودها أو بالحيدة عنه.

عصر الرشيد وبنيه (عصر ابن حنبل):

كان هذا العصر. عصر الأفعال العظيمة وردود الأفعال العظيمة، وهو حقيق بأن يقول فيه الرجل الصالح كلمته، أو يقف موقفه، دون تكلف أو وجل، ومن الأعمال العظيمة في تاريخ الإنسانية ما قد يكون عملاً عاديًا في يوميات رجل.

كان عصر العلم الإسلامي بحق. يتألق فيه مالك والشافعي وابن حنبل وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وكثيرون عملوا على آثارهم. أما في العلوم والرياضيات الأخرى فهو عصر رواد الكيمياء والفلك والرياضيات العالميين – جابر بن حيان والكندي والخوارزمي – وهو عصر الترجمة في كل علوم العالم، وعصر الكتاب العالميين والشعراء الفحول، وعصر دار الحكمة والمراصد الفكلية، وهو إذ انفرد في التاريخ البشري بأعظم المشرعين العالميين يمتاز في تاريخ الملوك بالنزعة العلمية التي ملكت ألباب الخلفاء المتعاقبين فيه، وكما يقول المستشرق – نيكلسون – "... لقد بدأ الناس جميعًا من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنًا طلابًا للعلم أو على الأقل أنصارًا للأدب". ويقول: "في عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيًا وراء العلم".

وفي إحدى حجات الرشيد – دخل على الفضيل بن عياض فوعظه فلما هم الرشيد بالانصراف قال له: يا أمير المؤمنين إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا بالحجاز. قال الرشيد.. أجل إنه ما قلت.. وعاد من حجه إلى دار السلام فكتب إلى الأمصار كلها ليكتبوا من التزم الأذان في ألف منا لعطاء. ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس الأدب في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر، في أربعة آلاف من العطاء، فما بقى عالم ولا قارئ ولا سباق للخيرات ولا حافظ للحرمات في أيام بعد أيام الرسول عليه الصلاة والسلام وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد: كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين ويستبحر في العلم والفقه ويروي حديث الرسول ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة.

واشتهر تسامح الرشيد فصار لجاثليق النساطرة حق السكنى في بغداد، وأصبح يرسل المبشرين بالمسيحية في غير بلاد الإسلام. فكان له مبشرون في الصين، وأمست دار الحكمة التي أنشئت للترجمة جامعة ع لوم، وترجمت التوراة والإنجيل ترجمة جديدة إلى العربية.

والخليفة نسيج وحده. فكلمته هي القانون في العالم من منتصف أسيا حيث مملكة الصين حدود الشرق من دولته، إلى حدود أوربة الغربية في المحيط الأطلسي حيث الأمريكتان غارقتان في بحر الظلمات.

ولما غزا الدولة البيزنطية سنة ١٦٥ لأبيه المهدي وكانت تدين لها أوربة الشرقية، توالت على أبيه رسائل الولاء من ملوك العالم البعيد في كابل وطبرستان وطخارستان والسند وأشرو سنة وسجستان والتبت والصين.

كان إذ هو شاب في العشرين يحفظ القرآن والحديث ويعمل بهما، ويقرض الشعر ويرويه، وترويه زوجته وجواريه، وتراسله زوجته في ميادين الحرب بقصيد من نظمها. يوفد الوفود إلى إمبراطور الغرب شارلمان، وشارلمان أمي لا يقرأ ولا يكتب! يحج عامًا ويغزو عامًا طوال اثنين وعشرين عامًا من حكمه، فينتصر في حروب ثمانية: وهو مرة في آسيا وأخرى حول أسوار القسطنطينية لي أوربة، حيث تدفع له إمبراطورة الدولة الرومانية الشرقية صاغرة جزية سنوية، وحيثما حمل رحله حملت رحال العلماء والأدباء وفيها المكتبات الثقيلة. يقول فيه مؤرخ بني شيبان: "جاهد بنفسه وأنفق ما لم تطب به نفس أحد قبله ولم يل خليفة منذ كان الإسلام مثل ولايته"...

* * *

لكن هذا العصر النضير الوجوه بخلفائه وعلماءه كان يجن تحت الثرى بذور فنائه. يقول الخطيب البغدادي: "اجتمع للرشيد ما لم يجتمع للأحد من جد وهزل: وزراؤه البرامكة وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن أبي حفصة ومغنيه إبراهيم الموصلي.. وضاربه زلزل.. وزامره برصوما"..

والبرامكة يمثلون عنصر التلف الذي سيصيب الخلافة من مأمنها.

والمغنون يمثلون عنصر الترف الذي سيؤدي بها من داخلها.

والشعراء مثال من عامل السرف الذي رخص أموال الأمة وبعثرها في غير مصارفها اللازمة شرعًا أو سياسة.

أما الحاشية ومطامعها فكانت كهيئة جزيرة في بحر الطمع. حدودها الأربعة مصالحها. وأعاطي الخلفاء سحائب تنهمر في بطون الأشياع والأتباع من كل أكلة شربة لا يشب، والأرض ملأى بجياع غرثى، شاخصية أبصارهم. وذؤب الرجال الأرجاس من رواد القصور، فلم يتركوا للناس إلا رذالات أشياء، ليس فيها غناء.

وساعدت الحضارة والتجارة على أن يستشري أذى البذخ وتغص القصور بالجواري والسراري وما يلزم لعالمهن في السر والجهر، مما تتردد المبالغات فيه على صفحات "ألف ليلة"، فيتزاوج الواقع والخيال، فينسبها التاريخ إلى الرشيد وعصره مع أن الأصل فارسي (هزار أفسان: ألف خرافة) صيرها المترجمون إلى العربية "ألف ليلة" وأضاف إليها المؤلفون أساطير ساحرة من

أقاويل عصره! ولكن المحقق أنه كانت في قصره ألف جارية.. وفي عصر المتوكل حفيده سيتضاعف العدد ويتضاعف!!

وأمن الناس بعد خوف وأمنت الدولة طرق القوافل، فحملت الآنية من الهند والحرير من الصين. فلم تضمحل التجارة مع الصين إلا بعد أن اشتهرت مرو بتجارة الحرير، وحمل الحديد من خراسان، والنسيج الملون من كشمير، والمسك والدارصيني من الصين، والعطر من اليمن والسلاح والمصنوعات من فارس، والخيزران والكافور والقرنفل والثياب القطنية والتيلة من الهند والسند، والياقوت والماس من سرنديب (جزيرة سيلان)، والجلود والرقيق من بلاد الروم، والفاكهة والسلاح من الشام وجلود الثعالب من روسيا.

كان أبو جعفر المنصور المؤسس الفعلي لدولة جاءت لتطبيق أحكام الدين وإعادة الخلافة إلى بيت الرسول، وكانت الأمة ترتقب الخير الكثير إذ هبت عليها رياح التغيير، وهو القائل مقولات مؤسسي الدول: "لو أن عندي ألف بعير، وعندي بغير أجرب، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره".

يقول عنه خالد بن الصلت بعد أن أتم بناء مدينة المنصور (بغداد) وكان قيمًا على بنائها للمنصور: رفعت إليه الحساب فبقيت على خمسة عشر درهمًا فحبسني حتى أديتها!!

وكان المؤسس الفعلي يلبس الخيش وربما رفع قميصه!! ومن أجل ذلك خلف في خزانه ستمائة مليون درهم، وأربعة عشر مليون دينار، أيام كان الكبش بدرهم: وتلاه ابنه المهدي وكان معطاء يسيل الندى من راحتيه، فافتتح عصر البذخ ليجيء بعده الرشيد فلا يقف بالإسراف عند حد.

بلغت نفقات زواجه من ابنة عمه كما تروى الزوج نفسها بين خمسة وثلاثين وسبعة وثلاثين مليون درهم!! والسرف مرض معد. أبلغ نفقات زواج ابنه مائة مليون درهم عندما دخل المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل، ولما بنى المأمون بها في فم الصلح أنفق أبوها على المدعوين خمسين مليونًا أخرى.

ثم أنى لجواري القصور أن يحكمن!! وحكمن أفانين: من سيطرة على القلوب إلى حكم على الحاكمين، ومن شفاعات في الولايات إلى شفاعات في الأعطيات، ومن غرفات الخلفاء والوزراء إلى غرفات السرودات والدهانين وأربات الحظوة. إن رجالاً وإن نساء.

كانت الخيزران أم الرشيد والهادي من الموالي، ولما ولى الهادي أنشأت تتدخل في شئون الحكم حتى عزها في الخطاب قال: "لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو من خاصتي أو أحد من خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله.. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك كل يوم؟ – إياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم أو ذمي"، ولما مات في شرخ شبابه شاع أنها دست بين جواريها دسيسًا قتله، فتولى ابنها الرشيد، ومع ذلك لم تجيء بعدها أم ولد من أمهات الخلفاء بلغت عشر معاشرها صلاحًا أو تقوى.

وصارت كثرة أمهات الخلفاء والأمراء وأعيان الدولة من جواري القصر مما ينبئ بتخليط في الدماء وتحول في العناصر، يوهي الأواصر، ويدس إلى الأسرة المالكة والدولة دماء مشوبة تعكر الصفاء الأصيل الذي تسلم به الدول، وفي نصف قرن من حياة أحمد بن حنبل تتابع على عرش الخلافة خلفاء هجناء!

فأم المأمون خرسانية، وأم المعتصم تركية، وأم الواثق رومية، وأم المتوكل، خوارزمية. ليس فيهن واحدة عربية.

* * *

كان السفاح يطربه السماع من وراء ستر، أما المنصور فلم ير في داره لهو قط. مر يومًا فإذا خادم له قد جلس بين الجواري يضرب لهن بالطنبور وهن يتضاحكن فمشى رويدًا حتى أشرف عليهن فتفرقن، فأمر مولاه أن يضرب رأس الخادم بالطنبور حتى كسره ثم أخرجه من قصره.

ثم تغيرت الأيام فأمسى الخليفة المهدي يستمع إلى الغناء ويتسامح في أن يتعاطى سماره الشراب أمامه وإن كان – هو – لا يشرب، والمهدي هو الذي قال فيه بشار بن برد:

"خليفة الله بين الناي والعود"

وبشار هو الذي نشر الغزل المتهتك، ليتابعه في التهتك أبو نواس وسجراؤه، فيتغزلون بالمذكر، وأكثرهم شعوبيون، يرفعون شأن العجم وينالون من العرب.

وأصبح الهادي كهيئة أبيه المهدي مع السرف المتلاف، إذا وهب أبوه مروان ابن أبي حفصة مائة ألف، وهبه هو مائة وثلاثين ألفًا من أجل بيت من الشعر:

obeikandi.com

تشــابه يومًــا بأســه ونوالــه فمــا أحـد يـدري لأيهمــا أفضــل

بل قيل إنه أعطى مغنيًا ألف ألف درهم!!

حتى إذا ولي الرشيد الخلافة أصابت قصوره بدعة الغناء وسرت في الأغنياء كالوباء، وكان يجري فيه مجرى كسرى الفرس أردشير بن بابك، وكما يتحدث الجاحظ: كان أردشير قد رتب الندماء من الفرس فجعلهم ثلاث طبقات: الأولى لأبناء الملوك، والثانية للبطانة والندماء والمحدثين والعلماء، والثالثة للمضحكين وأهل الهزل والبطالة على ألا يكون في هذه الطبقة الثالثة خسيس أو وضيع كابن حائك أو حجام ولو كان يعلم الغيب، ويقابل كل طبقة أكفاؤها فجلس مقابل الطبقة الأولى أهل الحذاقة بالموسيقى والأغاني... ثم مَن يليهم حذاقة بإزاء الطبقة الثانية ثم من يليهم بإزاء الطبقة الثالثة من المضحكين ومن إليه.

وأتقن الرشيد التقليد، فإبراهيم الموصلي وابن جامع وزلزل الضارب لهما في الطبقة الأولى، وبتتابع الترتيب: برسوم الزامر ثم الغريض ينقر على الدف ثم جعفر الطبال... وللمغنيين ترقيات من درجة إلى أخرى، وكثيرًا ما كان نساء الطبقة الراقية يحضرون حفلات الغناء الخاصة بأسرهن.

ثم أحدث إبراهيم الموصلي (١٨٨) "مدرسة الموصلي"!! فعلم الجواري كيف يتجملن ويبهرن الأعين، ويغنين، فتغنى الرجال وربات الحجال. وغدت مجالس الغناء فتنة العين والأذن [٢١]، وانضاف الشراب إلى مجالات الاستمتاع. وأرخيت ستور القصور على أعاجيب لم يألفها المسلمون، والناس على دين ملوكهم.

---

(٢١) كانت مدرسة الموصلي أعجوبة الزمان! يأتي بالجواري الجميلات فيعلمهن الألحان والغناء ويعلمهن (فن الإتكيت) فتجاوبت أصوات المغنيات وراء جدران بيوت الدهاقين والسروات لتنتقل إلى الطرقات، وهو سبق في الغناء تسبق به طرقات بغداد شوارع (باريس وروما) من ألف ومائتي عام! أما سبقها في الإتيكيت وأناقة السلوك فأعجب. فالمنهج يحتوي دروسًا في الشكل وأخرى في الموضوع. فمن الأولى درس في ألوان الملابس ومناسبات لسبها ودرس في الجواهر والحلي وثالث في العطور ورابع في إعداد الزهور وخامس في المائدة وآدابها. ومن الدروس الثابتة درس في فن التحدث ودرس في آداب الجلوس وثالث في الهدايا ورابع في المراسلة. وبهذا المنهج انقلبت الحياة الاجتماعية في الطبقات الخاصة أعجب انقلاب – وأمسى جواريها جديرات بخيال ألف ليلة.

ولما مات إبراهيم الموصلي خلف أربعة وعشرين ألف ألف درهم!

وغلب الحب على لب الخليفة الشاب. فالرشيد على إعجابه بزوجه وبنت عمه زبيدة، متنقل الفؤاد من مراجل أم المأمون، إلى ماردة أم المعتصم، إلى هيلانة التي خلدها بشعر جميل رثاها به. وهو القائل في ثلاثة من جواريه:

إن "سحرا" و "ضياء" و "خنث" هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر، ولا ذنب لها ثلثي قلبي وترباها الثلث

وسنرى الرشيد مع هذا أكثر اعتدالاً من لاحقيه في شأن جواريه. لقد استعرض عنان جارية الناطفي إذ علم بجمالها وعلمها وشعرها وفصاحتها فقال مولاها الناطقي لا أبيعها إلا بمائة ألف، فردها الرشيد فتصدق الناطقي شكرًا لله بثلاثين ألفًا، ولما مات الناطفي بيعت بمائة ألف وخمسين ألف، وفي العام التالي لوفاة عنان اشترى المعتصم من تركة أخيه عربيًا، جارية المأمون، بمائة ألف درهم!

وكان بنو العباس يتكاثرون من كثرة ما يتسرون ويصلون إلى الإماء حتى ليبلغ عددهم ثلاثين ألفًا أغلبهم مترفون أغنياء يتوارثون أفانين اللهو والغناء.

فنرى المنتصر بن المتوكل [٢٢] (٢٤٧ – ٢٤٨) بغية المغنى بناق فيضحك أحد الندامى ويقول الخليفة: مم تضحك؟ قال الرجل من شرف الشعر وشرف صاحب اللحن وشرف سامعه: الشعر للرشيد واللحن لعلية بنت المهدي (أخت الرشيد) وأمير المؤمنين يسمعه؟

وكانت علية [٢٣] جميلة شاعرة ومؤلفة وملحنة. اشترى المهدي أمها بمائة ألف درهم – وكانت علية برزة، لمجالسها عشاقها. أما العباسة أخته الأخرى فجميلة شاعرة تحضر المجالس

---

(٢٢) المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وهو المشهور بمؤامرة الترك وقتل أبيه.

(٢٣) وهي القائلة:

بنى الحب على الجور فلو أنصف المحبوب فيه لسمج

والقائلة:

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب

الأسطورية للرشيد، وتحب جعفر البرامكي وتراسله، وربما كان لزواجهما السري المزعوم دخل في نكبة البرامكة.

* * *

أما الامين (١٩٣ – ١٩٨) فلم يقف في البحبحة عند حد. قسم الجواهر والأموال في النساء والخصيان – وكان يشرب شرب الهيم كما شهد عمه إبراهيم بن المهدي – وإبراهيم ذاته أعظم المغنين شأنًا في عصره. قبل أن يلي الخلافة في عصر ثورة!! قال: "بعت إلى الأمين وهو محاصر... فإذا هو جالس في طارمة (كشك خشبي في حديقة) – خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة – وهي قبة كان قد اتخذها فراشًا مبطنًا من الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر. فإذا قدامه قدح بلور مخرور فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال فأتيت بقدح... قال: بلغني نبأ قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان وما صنع في أمرنا من المكروه.. ودعا يجاريه.. تسمى ضعفًا. فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال: غنينا.. فوضعت العود في حجرها وغنت (غناء تطيروا منه فصرفها الأمين) فقامت فعثرت بالقدح الذي بين يديه فكسرته فما قمنا معه بعدها حتى قتل".

ثم جاء دور المأمون فعزف عن سماع المغنين سبع سنين ثم راح يعالن الناس بالبدع تترى، ولعل ظهوره للمغنيين والندماء كان من أيسرها! غنه زرزر وإسحق بن إبراهيم الموصلي (٢٣٥)، وكان اسحب كأبيه مغنيًا عبقريًا ومؤلفًا موسيقيًا. وامتاز من أبيه بأنه لم يكن يهيء الجميلات للقصور، وأنه كان شاعرًا بل كان يحفظ الحديث، وبلغ افتتان المأمون به أن قال فيه: "لولا م سبق على ألسن الناس وشهر به من الغناء لوليته القضاء بحضرتي فإنه أولى وأعف وأصدق وأكثر دينًا وأمانة من هؤلاء القضاة".

ونبو المأمون بمغنيه عن موضعه مظهر من مظهر تطرفه التي عانى منها العلماء في عصره.

ولما ولى المعتصم بعد المأمون ميز اسحق في العطاء من بين المغنين والشعراء إذ هنأه بقصيدة من نظمه وتلحينه وغنائه.

ثم ترقى الخلفاء في سلم النغم، بعد إذ مات المعتصم. خلفه ابنه الواثق وكان يسمى المأمون الأصغر فسبق الأكبر – وكل من سبقه – بأن أصبح يضع الأصوات والألحان فيغنيها

له اسحق الموصلي. بل كان هو يغني وهو في مباذله. بل تداولت مجالس الندامى والمغنين له مائة لحن.

ثم خلفه المتوكل فكان أكثر إتلافًا وإسرافًا. تمارت خشف وعريب أمامه في الألحان فظلتا تغنيان حتى مضى اثنان وسبعون لحنًا. ومدح مروان بن أبي الجنوب أمامه ولاة عهده – أبناءه – بقصيدة فلم يكد يتمها حتى أمر له بمائة وعشرين ألف درهم أضاف إليها خمسين ثوبًا وثلاثة من الظهر – فرسًا، وبغلاً، وحمارًا – فدخلت الموهوب إليه، لا الواهب، خجلة! فلم يبرح القصر حتى نظم فيه قصيدة جديدة أعلن فيها الحياء من إفساد الخلفاء للشعراء حيث يقول:

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزد فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

وأكبت على الرفاهية والسرف طبقة موسرة تصنع في الإسلام كهيئة الفرس والأكاسرة: الغلمان زينة، والقيان فتنة، والحيطان تلبس الوشى والديباج، وحدائق الزينة – في الدور – منها ما يتكلف عشرة آلاف دينار، ريحانها مجلوب من الهند والثمار في غير إبانها تشتري بوزنها فضة، والنمارق مصفوفة في الحر قريبًا من الماء الدافق يخرج من بين صور السباع والأطيار والثمار المنحوتة في الرخام، إلى غير ذلك مما لم تبلغه من قبل الأمم التي أترفت في معايشها فصارت أحاديث.

* * *

والقصور أعاجيب أخرى – فالمنصور مع حرصه وشحه وتقشفه وورعه يفتتن بمدينته فيزخرف قبابها بالذهب ويجعل عليها تماثيل تديرها الريح ويبني قصر الخلد وقصر الذهب، وبه وبالخلد فضة وذهب، ورسوم. ومجلس الأمير – مجلس العرش – مفروش بالرخام المجزع تتوسطه قضبان من ذهب وبه كراسي مرصعة باللؤلؤ لجلساء أمير المؤمنين.. وعلى باب القصر بحر يجر إلى أعماقه أموال الأمة: مكان يجتمع فيه وفود الشعراء والمغنين والمضحكين لعل الرشيد يخطر بباله في الليل أو النهار طلب بعضهم. ولقد يدخل عليه ابن مريم فيضحكه حتى يستلقي على قفاه.

ويبني الرشيد قصرًا على دجلة يجلس فيه إلى الشباك إلى غناء الملاحين، ويبني المعتصم والمتوكل بضعة عشر قصرًا، ويبني الواثق قصرًا فيه قبة وسطها تاج منقوش مغشى باللازورد والذهب!! والقادرون يقلدون.

واشتهرت أسماء قصور بغداد كالخلد والتاج وقصر زبيدة وقصور البرامكة منها "قصر جعفر" ابن يحيى البرمكي وزير الشيد وابن وزيره كلفه عشرين ألف ألف درهم – وفي مجلس شرابه – يقول صاحب الفخري: "كانوا إذا جلسوا مجلس الشارب لبسوا الثياب الحمر والصفر، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات وخفقت العيدان"، أما جعفر فكان دولة داخل دولة أبيه. قالوا إنه وقع في ليلة بحضرة الرشيد ألف توقيع على أوراق قدمت إليه لم يخرج منها شيء عن موجب الفقه والبلاغة العربية! (٢٤).

ولما نقل أبان بن عبد الحميد اللاحقي إلى الشعر كتاب "كليلة ودمنة" قدمه للبرامكة فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل (بن يحيى) خمسة آلاف دينار. أما جعفر (بن يحيى) فقال لأبان: ألا يكفيك أن أحفظه فأكون روايتك؟ وما هذه إلا مثال على الإسراف والسلطان الفكري والمادي اللذين سيطر بهما البرامكة.

لقد مضى نصف قرن على تبشير أبي حنيفة لأبي يوسف أنه سيأكل الفالوذج بدهن الفستق، لكن هذا اللون الذي ظنه الإمام الأعظم أعجوبة سيصبح في عصر الرشيد أقل شأنًا مما تحويه موائد المغنين العاديين. فعلى مائدة واحد منهم – غير مشهور – وجدنا "خبزًا وبقلاً وملحًا، وجديًا مشويًا، وسمكًا مشويًا ثم حلواء ثم فاكهة، وريحانًا وأنبذة".

وذات يوم أولم إبراهيم بن المهدي وليمة لأخيه الرشيد. واستصغر الرشيد قطع السمك في طبق قدموه على المائدة، فبصروه بأنه طبق من ألسنة السمك، لا من السمك، فراحوا يحصونها، فبلغ إحصاء الألسن مائة وخمسين لسانًا لأسماك ثمنها ألف درهم!! فلم يطعم حتى تصدق بألف درهم كفارة عن إسراف أخيه.

---

(٢٤) من هذه التوقيعات ما يجري مجرى الأمثال ويتداوله الناس في الأسواق إلى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهمًا في أيدي الناس. كتب إلى وال شكاه بعض عماله: (كثر شاكوك وقل شاكروك فإما عدلت وإما اعتزلت) وفي قصة متنصح (بعض الصدق قبيح) ورد على متظلم من عامل له: (إنا لمثله حتى ينصفك) وفي قصة محبوس: (العدل أوقعه والتوبة تطلقه) ولمعتذر من ذنب: (قدمت طاعتك وظهرت نصيحتك ولا تغلب سيئة حسنتين) وقرأ خطًا استحسنه فوقع: (الخط خيط الحكمة. ينظم فيه منشورها ويفصل فيه شذورها)..

ونسى الرشيد إسرافه هو وإسراف أهله! لقد كانت أعاطيه تزري بأعاطي السابقين واللاحقين وتتحدى الخيال في أموال هي أموال المسلمين أولاً وأخيرًا [٢٥]. أما زوجته زبيدة فلها ثوب من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار وبساط من الديباج من صنع يدها فيه صور من الذهب أعينها يواقيت، أنفقت عليه مليون دينار، وهذان ثوب وبساط من بين أثواب وبسط.

ودخل المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل في فم الصلح فمشى على حصير منسوج من الذهب. نثر عليه ألف لؤلؤة، من كبار اللؤلؤ، وكان ثغر الزمان يفتر في كل عام لهؤلاء المسرفين عن نحو ٤١١ مليون دينار في خزائن الرشيد [٢٦].

هكذا انحرف بنو العباس بالدولة الدينية الأصول عن سبيل القصد والصحة الفكرية والنفسية، إلى التعاظم المكلف والتعاجم الأجوف. وهي السبيل التي نقلت البذخ الكسروي وركوع الرعايا للملوك من الشرق إلى قصور اليونان والرومان، وكادت تودي بحياة الإسكندر الأكبر، وهو الحكيم الذي علمه أرسطو أن يتواضع فملك القلوب بشجاعته ونزاهته فكره وتواضعه، حتى دارت بعقله كؤوس النصر في آسيا والمثل السيئ في فارس، فطاش حلمه وطلب أن ينحني أمامه القواد والكبراء كما ينحني نظراؤهم لكسرى في الشرق، فتآمر عليه قواده، وسرت آفات المنهزمين إلى المنتصرين فانتقلت أمراض التعاظم والسرف والفساد من الفرس إلى اليونان فالرومان لتصير تراثًا للجبابرة في الدول الحديثة في أوربة.

وكان خضوع العباسيين الفكري والفعلي والسياسي والاجتماعي للفرس آفة الزمان كله وسبيل الدمار للدولة.

---

(٢٥) أمر الرشيد مرة بشراء مغنية بآلاف الدراهم فاستكثرها وزيره، فأحضر المبلغ وكومه أكوامًا وجعله في موضع يطلع عليه الرشيد في ذهابه إلى الوضوء ورجوعه منه. ورأى الرشيد الأكوام فاستكثرها حقًا لكنه أصر على الشراء.

(٢٦) الدينار كان يساوي عشرين درهمًا أو خمس عشرة أو عشرة حسب نقاوة الفضة التي يضرب منها، والدينار الذهبي يساوي ستين قرشًا من الجنية الذهبي. والدانق سدس الدرهم.

* * *

رأى أحمد بن حنبل بعين ورعه من آفات عصره ومصاير مجتمعه ما لم يره السادرون فيها بعيونهم الباصرة، وحسبنا بعض أمثال تشير إلى مشاكل الجيل وهي مشاكل سيحلها الدمار المنتظر.

١- كان البرامكة يسكنون بحذاء الرشيد من الجانب الآخر وبينه وبينهم عرض دجلة، وكان منذ تولى الخلافة سنة ١٧٠ قد فوض في أمور الدولة كلها لمعلمه يحيى ابن خالد بن برمك فتولاها يحيى وبنوه. وكان الرشيد أيامذاك ينظر إلى الجانب الآخر من النهر فيرى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى فيقول: "جزى الله يحيى خيرًا تصدى للأمور وأراحني من الكد". لكن اختلاف النهار والليل ينسي، والعيب يحدث، وإذا نظر الرشيد يتغير إذ يبصر بنفس المنظر! فأصبح يرى اعتراك الخيول وازدحام الناس فيقول: "استبد يحيى بالأمور دوني"، وإذا ليلة من ليالي سنة ١٨٧ تقوم فيها القيامة. وإذا مسرور خادم الرشيد وسيافه يجيئه برأس جعفر بن يحيى وزيره بعد أن قبل جعفر رجل مسرور متوسلاً إليه أن يراجع الرشيد في أمره، ولم يصف الزمان للحزب العربي إلا بضع سنين في حياة الرشيد.

٢- فلما قضى الرشيد نحبه قلب التاريخ الصفحة من النقيض إلى نقيضه فقتلت جيوش الفرس الوافدة من خراسان الخليفة الأمين، ابن الرشيد، وولت المأمون – وكانت أمه في خراسان – واستذأب الحكام الفرس على العرب.

٣- حتى إذا ولي المعتصم أسقط العرب من الديوان وقصر الجيش على الفرس والترك. ثم توج ابنه الواثق القائد التركي أشناس ملكًا. فجاء دور الأتراك فسيطروا على الخلفاء أنفسهم، وعتوا في الأرض مفسدين، واستفتح عصر السيطرة الأجنبية بمقتل الخليفة المتوكل وتتابعت مصارع الخلفاء.

٤- وسرت آثار الفساد إلى المجتمع العلمي من تنازع العناصر وضعف الأخلاق فلم يبق ميدان جدال بل صار ميدان معارك، وصار عقل المأمون والمعتصم والواثق في أيدي بعض المعتزلة مع سوء سيرتهم في الأمة [٢٧].

---

(٢٧) وكان الفقهاء أنفسهم مختلفين فيما بين أنفسهم، ثم فيما بينهم وبين المحدثين. وكان هؤلاء جميعًا في جانب وفي جوانب أخرى أرباب الملل والنحل مع انحياز الكتاب والشعراء والخلفاء والوزراء إلى هؤلاء، أو هؤلاء، مع

في عهد أسبق وأتقى من هذه العهد كتب سفيان الثوري – أستاذ أحمد الروحي– يقول للخليفة وكأنه يوجه المقال لكل من جاء بعده من خلفاء بني العباس: "..... ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ولا يجدون الشارب، ويزنون ويجلدون الزاني، ويسرقون ويقطعون السارق، ويقتلون ولا يقتلون القاتل".

أما عصر أبناء الرشيد فلم يقتصر فيه الفساد على جماعة الحكام بل تعداها إلى العلماء أنفسهم فأحسن الوصف فيهم ذو النون المصري حيث يقول: "كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضًا للدنيا وتركًا لها، واليوم يزداد الرجل بعلمه حبًا للدنيا وطلبًا لها، وكان الرجل ينفق ماله على علمه واليوم يكسب الرجل بعلمه مالاً، وكان يرى على صاحب العلم زيادة في باطنه وظاهرة واليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر".

وخليق بالقلب الورع أن يقف موقف تساؤل بإزاء مجتمع يتقلل من الفضائل، ما وسعه. لكن أتقى وأفضل وأفقه وأعلم أهل العراق لا يقف موقف تساؤل، بل يجيب. ولا يكفيه جواب نظري بل يعمل. ولا يكتفي بعمل عادي بل هو يتخذ من الدنيا الغارة موقفًا واضحًا الباطن ناطق الظاهر – هو موقف الزهادة والمسئولية مع وقوفه من الخلفاء موقف الولاء للدولة، والرجاء لهم، وفقًا للسنة.

ولقد كان طبيعيًا أن يظهر للتصوف، أو رفض الدنيا الغرور، رجال في إبان حياة المنصور أو المهدي. فترى إبراهيم بن أدهم (١٦٢). وأن يزداد ازدهارًا في عصر الرشيد فنرى شفيق البلخي (١٩٥) ومعروف الكرخي (٢٠٢) ثم بشر الحافي وتلاميذهم. وأن يرفع أحمد بن حنبل شعاره الخالد "ما قل من الدنيا كان أقل للحساب".

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "قليل الدنيا يلهي عن طريق الآخرة" ومع ذلك لا يقنع المستكثرون بل يريدون ليشربوا البحر كله، بشطارة الشطار وتلفيق اللاهثين، كالذين يدورون حول الرحى والذي يرحلون عنه هو الذي يرحاون إليه. أو كالدابة التي يتدلى من رأسها، أمام

تبادل التهم. والمقدسي يشارك في المدح والقدح فيقول: (قلما رأيت في بغداد من فقهاء أبي حنيفة إلا رأيت أربعة: الرياسة مع لباقة فيها والحفظ والخشية والورع. وفي أصحاب مالك أربعًا: النقل والبلادة والديانة والسنة. وفي أصحاب الشافعي: انظر والشغب والمروءة والحمق. وفي أصحاب داود: الكبر والحدة والكلام واليسار. وفي أصحاب المعتزلة: اللطافة والدراية والفسق والسخرية. وفي الشيعة: البغضة والفتنة واليسار والصيت).

obeikandi.com

عينها، العشب الأخضر فتعذ السير لتبلغه وما هي ببالغ. وكأن الناس يخلدون أبدًا ولن يلقوا الله غدًا.

والويل لمن كسب الدنيا وخسر نفسه – أما من كسب نفسه فقد أبقى مركز الثقل في يده.

وقوام الحيات لقيمات. والرفاهة تبعات.

وإنه لأعبد وأعف أن يصير المرء إلى جوهر الحياة الرفيعة راغبًا غير رغم. فهو عندئذ يبدأ بالقيم الحقيقية لينتهي إلى قمة الزهد والتوكل على الله، لا من القهر والحرمان لينتهي إلى الرضا المقهور بالقضاء، لتبقى في نفسه أشياء.

وصبر المحروم وزهد القادر فضيلتان بناءتان تستبقيان اللذات كيانها وتجنبانها الذبذبة الدائبة وفق الأشياء وأشباه الأشياء. وطبق الأفعال وردود الأفعال، ومن حفظ القرآن لكيان الإنسان ذكر الصبر تستعين مرة في حين ذكر الصلاة مائة – وهي عماد الدين – وأمر القرآن المسلمين بأن يستعينوا بالصبر والصلاة. وكثيرًا ما نص عليهما معًا.

ومن كان إمامًا في العبادة فهو إمام في الصبر والشكر، وهما يعلمان بالعمل لا بالكلام.

* * *

هذا نفذت بصيرة أحمد إلى أدواء المجتمع فطلب لها بالدواء الذي أنزلته السماء. وإن كان بعيدًا عن تصور المبهورين واللاهثين، وهو بين أيديهم، والزهد هو المثقال الذي يعيد الميزان إلى الاعتدال ويهيئ الحياة الكاملة للحواس الخمس.

وعلم أحمد أعظم العلوم أثر في الأمة، وهو فقه القرآن والسنة، فوجب أن يكون سلوكه العلمي من مستواه العلمي. والحسن البصري هو القائل: "الذي يفوق الناس في العلم جدير أن يفوقهم في العمل" وما هو إلا بالاقتداء هو القائل: "الذي يفوق الناس في العلم جدير أن يفوقهم في العمل" وما هو إلا بالاقتداء بعمل الرسول وصحبه وخلفائه الراشدين.

ويوم يخلص المسلمون القدوة بهم في الإيثار والزهد والتضحية يكونون صبرًا صدقًا في كل موقف. إن حربًا وإن سلمًا، إن علمًا وإن عملاً، وفي كل مقام كتب لهم فيه نصر أو تقدم. سأل طليحة بن خويلد المتبنئ أتباعه وكانوا جحفلاً لجبًا يواجهون قلة من المسلمين: ويلكم لماذا تنهزمون؟ فأجابه واحد منهم: أنا أحدثك لماذا ننهزم. ليس واحد منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله وإنا لنلقي قومًا كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه.

وعندما راسل خالد بن الوليد الهرمزان قال له: جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.. وإنما علمه أبو بكر – وعلم المسلمين معه – طريقة النجاة الحقه يوم بعث إليه يقول له: احرص على الموت توهب لك الحياة.

ولما أخذ أحمد نفسه بالأتباع، ما استطاع، نجا من عرض الدنيا وصدق زهده وعمله، وأحدث أثره في الناس، والناس قد لا يصدقون القول، وقد لا يفهمونه، وإنما يصدقون العمل. وما أبعد قلوبهم من الداعية إذا بصروا به لا يعمل بما يدعوهم إليه أو عثروا عليه يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، وكما يقول الثوري: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

ويقول الحسن البصري: "اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا بأقوالهم، فإن الله لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً، من عمل، يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولاً حسنًا فرويدًا بصاحبه فإن وافق قوله عمله، فنعم، ونعمة عين".

obeikandl.com